سيل العرم وسد مأرب..
تساؤلات عن الانهيار الكبير

توفيق السامعي

مقدمة:

هطلت سيول جارفة في شهر (أبريل ٢٠٢٠م) على معظم اليمن، وخلفت أضرارًا بشرية ومادية كبيرة، وخاصة في محافظة مأرب، بعثت في مخيلة اليمنيين حادثة هي من أهم أحداث التاريخ اليمني، والتي دوَّنها القرآن الكريم دون غيره من المصادر، وهي حادثة «سيل العرم»، وما علق بها من أساطير وحكايات كثيرة صارت مضربَ الأمثال عند العرب.

دوّن القرآن الكريم قصة سيل العرم، الذي أرسله على قوم سبأ في اليمن، بسبب إعراضهم عن شكر نعمة الله بطلب الترحال وبُعد الأسفار وعدم الاستقرار، كما هو واضح من سياق الآيات القرآنية الواردة في سورة (سبأ) من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ

بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وتعتبر هذه القصة والحادثة محطةً مفصليةً في تاريخ اليمن؛ إذ ترتَّب عليها الكثير من الأشياء، والتي عدت بمثابة زلزال كبير في الجزيرة العربية برمتها، وتاريخًا فاصلاً في الجزيرة كلها.

امتلأت كتب السير والتاريخ عند الإخباريين بهذه القصة فزيد فيها وأُنقص، وكُتبت حولها الأساطير الكثيرة منها الخرافية ومنها الإبداعية في الخيال والتدوين والتنبيش في الذاكرة، ولم تكن كذلك لولا أن القرآن الكريم جعلها من إحدى عبره وقصصه وأحداثه الكثيرة.

فالكتب التاريخية الإخبارية تحكي عن هجرة كبيرة لليمنيين من أرضهم إلى مختلف البقاع، سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها، في الشام والعراق ومصر وأفريقيا.

ربما لم يثر هذا الأمر اهتمام الكثير من المؤرخين الآثاريين أو الباحثين، للتوفيق بين ما رواه الإخباريون في كتبهم والآثاريون الباحثون في النقوش والمدونات اليمنية بالخطوط المختلفة،وفي المساكن وما خلفه الإنسان اليمني والحضارة اليمنية، باستثناء المؤرخ الكبير جواد علي الذي فصَّل في هذه المسألة أيَّما تفصيل في موسوعته «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، وكذلك بشيء من الإشارات واللملمات المختلفة للبروفيسور يوسف محمد عبدالله، أو لبعض الباحثين الآثاريين الآخرين الذين يقفون عند النقوش المجردة بالإحصاء ودراسة تاريخها، وكل له غايته منها من استقصاء وجمع أو دراسة لغوية...إلخ.

وفي هذا البحث حاولنا –قدر الإمكان– أن نستقصي هذه المصادر التي

تحدثت عن سد مأرب وقصة سيل العرم المذكورة في القرآن الكريم، ونوفق بينها وبين الواقع.

مدخل:

عُرِفت اليمن على مرِّ العصور ببنائها للسدود وخزانات المياه، وإجراء السواقي/الأفلاج المختلفة كأنهار صناعية لوسائل ري متطورة تجلب المياه من أماكن بعيدة، من أودية وأنهار إلى المدن والقرى المختلفة للانتفاع بها، واشتهرت الكثير من السدود اليمنية في الدول السبأية والقتبانية والحميرية والحضرمية، ومن ذلك أبيات شعرية نسبت للملك الحميري أبي كرب أسعد (أسعد الكامل) يقول فيها:

ورَيْدَانُ قَصْري في ظَفَار ومَنزلي	بهَا أسَّ جدِّي دورَنا والمناهلا
على الجنَّة الخضراء من أرض يحصب	ثمانونَ سدًّا تقذفُ الماءَ سائلا
مآثرُنا في الأرضِ تصدقُ قولَنا	إذا ما طلبْنا شاهدًا أو دلائلا

ومن هذه السدود: «قصعان» و«ربوان»، وهو سدّ قتاب[1]، وشحران، وطمحان، وسد عباد، وسد لحج، وهو سد عرايس، وسد سحر، وسد ذي شمال، وسد ذي رعين، وسد نقاطة، وسد نضار وهران، وسد الشعباني، وسد النواسي، وسد الخانق بصعدة، وسد ريعان، وسد سيان، وسد شبام، وسد دعان وغيرها. وذكر «الهمداني» أن في مخلاف «يحضب العلو» [يحصب يريم] ثمانين سدًا[2].

وسدُّ «الخانق» سدٌّ ينسب إلى «نوال بن عتيك» مولى سيف بن ذي يزن، ومظهره في «الخنفرين«من رحبان. وقد خرَّبه»إبراهيم بن موسى العلوي[3]» بعد هدم صعدة[4].

وهناك آثار سدود جاهلية أخرى أقيمت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية، منها آثار سدٍّ قتباني أقيم عند موضع «هجر بن حميد» بوادي بيحان، وقد درسه ووصفه «بوون»، كان يسقي بمائه منطقة واسعة من أرض مملكة قتبان[5].

وآثـار سـد «مرخـة»، وآثـار سدٍّ آخـر أقيم عنـد «شبـوة»، وسـدٍّ آخر عند «الحريضـة»، تفرعت منه شبكة من القنوات والمجـاري لإيصال الماء إلى المزارع والأرضين الخصبة التي تعيش عليها[٦].

«واستبـد سدُّ مأرب من بين سائر سدود جزيرة العرب بالاسم والذكر، ونال مكانـة كبـيرة في كتب التفسير والسِّـير والأخبار، ولذكر القـرآن لـ«سيل العرم»، نصيـبٌ كبير في توجُّه أنظار علماء التفسير واللغة والأخبار إليه، وفي خلود اسمه إلى الآن. وقد روى أهل الأخبار قصصًا عنه وعن كيفية خرابه، وتشتت شمل سبأ بسببه، ونزوحهم إلى مواضع بعيدة عن ديارهم القديمة.

ويعـدّ سدُّ «مأرب» من أهم السدود التي أقيمت في اليمن وفي جزيرة العرب، وقـد بني من أجـل السيطرة على مياه الأمطار والسيول التـي تتدفق منها لوقاية المـزارع والقرى منهـا، وللاحتفاظ بهذه السيـول للاستفادة منهـا إذا انقطعت الأمطار، وإرواء مناطق واسعة من الأرضين، جيدة التربة، خصبة مثمرة»[٧].

قصة سيل العرم التي أشار إليها القرآن ووثَّقها كحدث لمرة واحدة في التاريخ على إثرها تم تمزيق اليمنيين شذَرَ مذَرَ في البلاد المجاورة وحتى البلاد البعيدة، لتنشـأ على إثرها شعـوب وأوطان وممالك جديدة كوَّنت فيمـا بعد بعض شعوب العالم العربي، ظلت من أهم الأحداث المحيرة تاريخيًّا، وتلاعب بها الإخباريون.

فقـد مضت معظم التفاسـير والسير الإخباريـة التاريخية تقصُّ علينا أن سيل العرم أرسل على مأرب وسدها، والذي انهار بفعل السيل والقصة الخرافية للفـأر، وبسبب هذا الانهيـار كانت هجرة اليمنيين إلى مناطـق شتى من المحيط الإقليمي، وتكوين الكثير من الشعوب والممالك فيها.

ومـن ذلك مثلاً مـا جاء في تفسير ابـن كثير من قصص كثـيرة ملخصها: «وذكر غير واحد ومنهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله -عز وجل- لما أراد عقوبتهم [أهل سبأ] بإرسال العرم عليهم بعث على السدِّ دابةً من

الأرض، يقال لها: «الجرذ» نقبته. قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ، فكانوا يرصدون عنده السنانير برهةً من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأرُ السنانيرَ، وولجت إلى السد فنقبته، فانهار عليهم»[٨].

لكن وبقليل من الدراسة والتمحيص لكل تلك الروايات سنتوقف عند بعض المفاهيم والوقائع التاريخية بعيدًا عن الحكايات الأسطورية التي تفتقد لكثير من الدقة، كون كثير مما ذهبت إليه أقوال المفسرين كانت رجمًا بالغيب، لا تستند إلى شاهد أو دليل مادي على الأرض، وسنأخذ تلك الدراسات من خلال الآثار والتاريخ وإعمال الحجة والمنطق والعقل، لنصل إلى نتيجة مرضية للمنهج العقلي والبحثي اليوم، وكذلك سنسرد من خلال هذه الدراسة عدد المرات التي تدمَّر فيها السد، وإعادة إعماره وترميمه من جديد.

بناء السد وتهدمه:

تفتقر الأراضي اليمنية إلى أنهار طبيعية تجري فيها طوال العام للاعتماد عليها في الزراعة، كما هو الحال مثلاً في مصر والسودان مع وجود نهر النيل، أو بلاد الرافدين مع وجود نهري دجلة والفرات، وهي أنهار كونت حضارات زراعية في تلك الدول، واستقرارًا سكانيًّا كبيرًا، فاليمنيون يعتمدون في زراعتهم على مياه الأمطار الموسمية في الصيف وقليل من الربيع والخريف.

تلك الحاجة للمياه جعلت الإنسان اليمني يفكر في إنشاء نمط ريٍّ زراعي يعوضه عن الأنهار الطبيعية التي تجري طوال العام، فاهتدى إلى فكرة بناء السدود والحواجز المائية والمآجل والبرك، وإنشاء القنوات والأفلاج التي تنقل المياه من أماكن بعيدة ليخزنها ويستفيد منها عند الحاجة إليها شتاءً.

من هنا جاءت فكرة بناء سد مأرب في مملكة سبأ القديمة، وغيره من السدود اليمنية الأخرى، وتم دراسة موقع إنشائه بعناية فائقة؛ فإقامته في ميزاب اليمن

الشرقـي، ومن خلفـه سلسلة جبلية مفتوحـة عبارة عن حوض صخـري بإمكانه خزن ملايين الأطنان من المياه.

و«شيد سـدٌّ مأرب في وادي أذنة بين مأزمي الجبلـين؛ البلق الشمالي والبلق الأوسط، وجبـال البلق هي سلسلة من الجبال تؤلـف الحاجز الأخير للمرتفعات الشرقيـة، قبل أن تلتقي بالصحراء، والصحراء المعنية هي ذلك الجزء من فلاة اليمـن أو (جرز اليمن الشرقي) الذي يمتد بين مأرب وشبوة، وتصب فيه معظم أودية المشرق، ويسميه الجغرافيون العرب بمفازة صيهد، ويطلق عليه حاليًّا اسم (رملـة السبعتين). وبين مأزمي الجبلين المذكورين يضيق وادي أذنة بحيث يكون موقعًـا طبيعيًّا يصلـح لإقامة سدٍّ، وتتسع منطقة التجمـع في أعلى المضيق، حيث تبدو وكأنها حوض مثالي لاحتواء المياه. ووادي أذنة هو (أذنت في النقوش اليمنية القديمة) وهو أعظـم أودية اليمن وميزابه الشرقي»[٩]. تنظر الصورة رقم (١) (صورة السد والوادي).

ولبناء السد وظيفتـان رئيستان؛ الأولى: حفظ الأراضي الزراعية من جرف السيـول المتدفقة، والثـاني تخزين المياه للاستفادة منهـا في الري في غير موسم الأمطار.

ويعتـبر سـد مأرب أول السـدود في اليمن وفي جزيرة العـرب على الإطلاق، حيث لم يُذكر سدٌّ في الجزيرة العربية قبل هذا السد.

لكـن خـلال هذه الفترة أو مـا قبلها في القرن الثامن الميـلادي، لم يكن سد مـأرب (رحاب) هو وحده الـذي شيد، فقد وجد سد خاصـ؛ ملكية خاصة لأحد المواطنـين، وقد ذكـره نقش مسندي صغير في متحف مـأرب بنوع خط المحراث، يتحدث عن امتلاك هذا الرجل لسد خاص.

ويعـود تاريخ هذا النقش إلى نهاية القـرن الثامن قبل الميلاد[١٠]، وربما كان أقـدم النقوش التي تتحدث عن السـدود الأخرى حتى الآن، كونـه يسبق تواريخ

النقوش التي تتحدث عن سد مأرب الكبير (رحاب) وبخط المحراث القديم[١١].

يقول النقش المكون من ثلاثة أسطر:

ل ي ح ي/ ع س ي

و ب ن ي/ م أ

خ ذ ن

والمعنى:

ليحيى امتلك

وبنى

سدهو[١٢].

ومن خلال الأبحاث ومراجعة تاريخ إنشاء سد مأرب نجد أن سد مأرب تم بناؤه وترميمه أكثر من ثماني مرات بين فترات متباعدة، وتهدم أكثر من ثماني مرات أيضًا، منها تهدُّم كلي، ومنها تهدُّم جزئي، وفي كل مرة يتم إعادة بنائه وترميمه.

ويعود بناء سد مأرب البناء الأول، على رأي أكثر الباحثين والمؤرخين، إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أي حوالي بعد بلقيس بقرنين من الزمن، ومنهم من يعيد بناءه إلى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، أي قبل عهد بلقيس بحوالي مائة عام أو يزيد.

ويرى العالم الآثاري النمساوي «GLASER" أن عهد البناء الأول للسد يعود إلى ما بين ٧٠٠و٧٥٠ قبل الميلاد (القرن الثامن)، وقد بقي قائمًا يؤدي واجبه إلى حوالى السنة «٥٧٥» بعد الميلاد[١٣].

وانفرد عالم الآثار اليمنية البروفيسور يوسف محمد عبدالله من بين

المؤرخين والباحثين بالقول إن إنشاء السد يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد[١٤].

ولا توجد بين أيدينا نصوص مسندية عن أول رجل أو حاكم أقام هذا السد، وعن العهد الذي تم فيه البناء، كما هو حال النصوص الأخرى، سواء عن الاستحداثات والبناءات والترميمات الأخرى أو تدوين أحداث السيول، وعلى وجه الخصوص «سيل العرم»، رغم أن اليمنيين القدامى كانوا لا يتركون شاردة ولا واردة إلا ودونوها بشكل نقوش مسندية، وتفسير هذا الأمر الأقرب للواقع هو أنه لم يتم العثور بعدُ على مثل هذه النقوش، وقد يأتي زمن تكتشف وتظهر للعيان.

فقد دوَّن اليمنيون حادثة حمم بركان سائل أصاب حوالي صنعاء وعمران من قرب جبل «ضين»، ولا تزال آثاره حتى اليوم، وقد ذكره النقش بـ«الثيل»، وهذا النقش حققه المؤرخ مطهر الإرياني، ويوجد النقش في خربة همدان، وهو من أهم النقوش التي تدل على الكوارث الطبيعية وخاصة ما عرف في القرآن الكريم بقصة أصحاب الجنة من ضروان، في سورة القلم، والتي يرجحها الإرياني في هذه الحادثة[١٥]، غير أنها لم تكن كذلك لاختلاف مواصفاتها في القرآن الكريم عما هو في النقش.

صحيح أن النقوش تذكر أن سيولاً مختلفة هدمت السد بين فترة وأخرى، لكن لم يذكر أيٌّ منها الآثار الكبرى المترتبة على تلك التهدمات والتصدعات؛ لأن ما ذكر في القرآن الكريم يعتبر حدثًا جللاً وضخمًا ترتب عليه التمزيق والتهجير كما تذكره الآيات.

ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدران السد بالمسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها، وآخرها هو إصلاح أبرهة الحبشي الذي تم على إثر تصدعه سنة ٥٤٢ للميلاد. ويظهر

أن تصدعًا آخر وقع للسدّ في أيام طفولة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك في حوالي السنة «٥٧٥» للميلاد، ولم يتم إصلاحه بعد ذلك، بسبب التدهور الاقتصادي لليمن الذي حدث في هذا العهد، وارتباك الأوضاع السياسية، واضطراب الأمن، وانتشار الثورات في كل مكان، وتدخل الأجانب في شؤون البلاد، فتصدع قسم كبير منه، ولم يهتم أحد من الحكام بإعادته إلى أصله بإصلاحه وترميمه، وتحولت بذلك الأرضون الخصبة التي كانت تروى بمائه، والتي كانت واسعة إلى أرضين موات، غطتها الطبيعة بطبقة من الرمال والأتربة، وألبستها أكسية الصحراء الحزينة، حدادًا على فراقها لذلك السدّ العتيد[١٦]، حتى تم إعادة بنائه في يوليو ١٩٨٤م من القرن الماضي في عهد الرئيس السابق علي عبدالله صالح على يد الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.

توجد نقوش مسندية «على حجارة السد القديم الباقية إلى أيام تعود إلى عهد «المكاربة». وأول اسم يرد في هذه النقوش التوثيقية لعمل السد أو إصلاحه هو سمهعلي ينوف بن ذمار علي[١٧]، وذلك في النقش المرموز إليه بـ CIH ٦٢٣[١٨]، والنقش يذكر عملية إصلاح في السد، وليس إنشائه من الصفر، وقام بحفر ساقية في السد فقط.ونفس الأمر ما قام به من بعده ابنه المكرب «يثع أمر بين» من عملية إصلاح وإجراء ساقية من السد.

في حين يذكر جواد علي أن المكرب «كرب إل بين بن يثع أمر»، ببناء جزء من السد وتقوية أجزائه الأخرى. كما قام الملوك بإضافة أجزاء جديدة إليه، وتقوية الأجزاء القديمة منه، ومن هؤلاء الملك «ذمار علي ذرح» ملك سبأ، والملك «يدع إيل وتر»[١٩]. لكن بالعودة إلى النقش فقد عمل عملية إصلاح فقط.

وهناك إشارة بسيطة إلى بناء السدود والحواجز المائية وقنوات الري المختلفة في مأرب وردت في الفقرة الثانية من نقش النصر ل»كرب إيل وتار»،

لكنها لم تفصل في هذا البناء أو تنسبه إلى «العرم» مثلاً، كما جاء في نقش أبرهة الحبشي كآخر الإصلاحات والترميمات لهذا السد.

تقول فقرة نقش النصر، كما أوردها المؤرخ جواد علي: «ووهبت أرض سبأ مطرًا سال في الأودية، فأخذت الأرض زخرفها بالنبات، وإذ مكنته من إنشاء السدود، وحصر السيول حتى صار في الإمكان إسقاء الأرضين المرتفعة، وإحياء الأماكن التي حرمت الماء، كذلك إحياء أرضين واسعة بإنشاء سد لحصر مياه الأمطار يتصل بقناة «عهل» لسقي «ماودن» «مأدون» والأرضين الأخرى التي لم تكن المياه تصل إليها، فوصلت إليها بامتلاء حوض السد بالماء، حتى سقت «موترم» «موتر» التي جاءها الماء من «هودم» «هوديم» «هودي»، وبإنشائه مسايل أوصلت المياه إلى «ميدعم» «ميدع» و«وتر» و«وقه»، ونظم الري في «ريمن» «ريمان» حتى صارت المياه تسقي كل أرض»[٢٠]، مع اختلاف القراءات للنقش من قبل باحثين آخرين ولكن بتقارب كبير.

في بعض النقوش الموجودة على حائط السد تذكر إما عمليات الترميم والإصلاح، وإما أسماء المكاربة (الملوك) بدون تحديد عمل لهم في السد، كما هو حال نقش المكرب «سمه علي ينوف بن ذمار علي» وابنه «يثع أمر بين» مثلاً اللذين ورد اسمهما وصفتهما دون أي ذكر للعمل[٢١]، وهذا يدل على أن السد لم يكن من إنشائهما، وإنما من عمل من قبلهم من المكاربة/الزعماء والملوك، وهم رمموا وأصلحوا فقط، الأمر الذي يعني قدم تأسيس السد عن زمنهم.

وهناك إشارة مهمة أخرى أيضًا عن تاريخ تأسيس السد بأنها تعود إلى ما قبل الألف الأول قبل الميلاد، وهي أن مختلف المؤرخين والباحثين يجمعون على أن زمن المكاربة سبقت بكثير فترة الملوك، ونحن نجد أن بلقيس مثلاً كانت في القرن العاشر ق.م، وقد ذكرها القرآن الكريم بوصفها ملكة لا مكربة، وهناك فرق بين المكرب والملك كما هو معلوم،فالمكرب المقدم

وكبير الكهنة المقرب من الإله أو كبير سدنة المعبد، في حين الملك كبير القوم وسيدهم والمتحكم في شؤونهم، ومن هنا كان وصف بلقيس بالملكة: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾. وفي النقوش على السد وردت صفة «مكرب» وليس «ملك» بمعنى أن إنشاء السد كان أقدم من الفترة المحددة بالقرن الثامن قبل الميلاد.

ويرى «فون وزمن» أن الملك الحميري ذمار علي يهبر (١٠٠ ب.م) غزا مأرب وقام هو وابنه «ثاران» بترميم سد مأرب وبناء المواضع التي تخربت منه؛ وذلك لأنه كان قد تخرب، وذكر أن تخرُّب السد هذا هو تخرُّب لم يصل خبره إلينا[٢٢].

كما تهدم سد مأرب للمرة الثانية في عهد الملك الحميري «ثاران يهنعم» بحسب نقش مسندي يرمز له بـJamme ٦٧١، وقيام الملك "ثاران يهنعم" بإصلاحه وإعادته إلى ما كان عليه. ويكون هذا الخبر هو ثاني خبر يصل إلينا مدونًا في كتابات المسند عن تصدع السد إلى هذا العهد[٢٣].

وكذلك أصلح الملك «شمر يهرعش» هذا السد، كما رممه الملك «شرحبيل يعفر» في سنة «٤٤٩» للميلاد، ولكن المياه جرفت أقسامًا منه سنة «٤٥٠» للميلاد، أي بعد سنة من الترميمات، فاضطر إلى إعادة إصلاحه وتقويته[٢٤].

واستخدم اليمنيون في بناء السد الرصاص والبرونز، وهي نفس التقنية التي استخدمها ذو القرنين في بناء سد يأجوج ومأجوج، وهي إحدى الأدلة على أن ذا القرنين ملك يمني والتقنية يمنية[٢٥].

في بناء السد والحواجز استخدمت حجارة اقتطعت من الصخور، وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وتثبت وتتماسك وتكون كأنها قطعة صلدة واحدة. ونحتت الصخور، بحيث صارت تتداخل بعضها في بعض، بأن يدخل رأس من صخرة في فتحة مقابلة لها، فتكون كالمفتاح في القفل، وبذلك تتماسك هذه الصخور وترتبط ارتباطًا وثيقًا، وتكون كأنها صخرة واحدة. وقد وجد أن

بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس يبلغ طول الواحد منها حوالى «١٦» سنتميترًا، وقطرها حوالى الثلاثة سنتمترات ونصف، وذلك بصب المعدن في ثقب الحجر، فإذا جمد وصار على شكل «مسمار»، يوضع الحجر المطابق الذي صمم ليكون فوقه في موضعه بإدخال «المسمار» في الثقب المعمول في الجهة السفلى من ذلك الحجر، وبذلك يرتبط الحجران بعضهما ببعض برباط قوي محكم.

وقد اتخذت هذه الطريقة لشد أزر السد، وليكون في إمكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل. أما المادة التي استعملت في البناء لربط الأحجار بعضها ببعض فهي من أحسن أنواع الجبس Gips، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت به واجهات السد أيضًا حتى صار كأصلب أنواع السمنت[٢٦].

وقد أقام المهندسون أبوابًا لدخول المياه منها وخروجها، كما أنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على المجاري والسواقي تفتح وتقفل بحسب حاجة المزارع والأماكن إلى المياه. ولا يزال بعض جدر السد قائمًا، وآثار السواقي والمجاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية، وهي تدل على مهارة مهندسي الري في ذلك العهد، وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعة لخدمة الإنسان.

صُمِّم السد تصميمًا بديعًا وبارعًا لاستيعاب الكثير من المتغيرات والمؤثرات من خلال السيول، مثل الطاقة الاستيعابية للمياه، وكذلك كمية الطمي الذي يمكن أن يصاحب السيول لتستقر في السد.

وعمل السبئيون للسد مصدات تحويلية مدعمة بالمعدن كي تتلقى صدمات السيول الواثبة والساقطة من الجبال فتخفف الصدمة على حائط السد حتى لا يتحطم مع كمية الطمي الكبيرة التي تحملها السيول، كما استبقوه بسدود تحويلية صغيرة على حوافه، وبالقرب سدود أخرى ومنها سد حبابض.

حيث «قدر العلماء الذين عنوا بدراسة الترسبات في باطن السد أن انكسار (العرم) بسبب الترسبات الخشنة ممكن أن يحدث كل قرن مرة واحدة. ومما قد يؤيد مثل هذا الاستنتاج ما رود في النقوش اليمنية القديمة، حيث تذكر تصدع سد مأرب في الفترات المتأخرة ثلاث مرات، وتؤرخ لذلك مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بالتقويم الحميري»[٢٧].

ويرى (Bruno) أنه إذا كان سعة سد مأرب الكبير في بداية أمره حوالي ٥٥ مليون متر مكعب، وكان حجم الطمي النازل سنويًّا إلى داخل بحيرة السد حوالي اثنين ونصف مليون متر مكعب، وإذا كان بالتالي متوسط قوة اندفاع السيول في السد لمدة عامين حوالي ٩٥٠ مترًا مكعبًا في الثانية، ومتوسط عشر سنوات ٣٧٥٠ متراً مكعباً في الثانية؛ فإن طاقة أي سد عادي حينئذٍ لا تقدر على استيعاب تلك السيول وطميها وقوة اندفاعها، بل إن جسم أي سد عادي لا يمكن أن يصمد أمامها لفترة أكثر من قرن. ولهذا فإن سد مأرب العظيم قد صُمِّم وشيد بدقة ومتانة وإحكام بحيث يخدم الغرض منه قروناً طويلة، وبحيث لا يتهدم السد ومرافقه جميعها إن انكسر جداره مرة في كل قرن، وإنما يكون الانكسار بمثابة تنفيس لباطن السد الممتلئ بالطمي[٢٨].

دونت النقوش عمليات بناء السد وترميماته المختلفة وإصلاحه بعد انهياراته المتعددة، وذكرت تلك النقوش بعض أسباب وعوامل تهدم السد، ومنها السيول، لكنها لم تشر إلى أية أسباب أخرى من التي رواها الإخباريون كالفأر مثلاً وغير ذلك، وكذلك لم تذكر تواريخها إلا قليلاً لاقترانها ببعض فترات الملوك، ولم تذكر هجرة ولا أسبابها، لكنها تذكر إعادة إصلاحه وترميمه وتستمر الحياة بشكل طبيعي.

باستثناء نقش باسمjamme٦٥١ ذكر أن سيولاً كبيرة كانت تهدد مأرب في زمن الملك "شمر يهرعش"، فأمر قائد الجيش بأن يقوم على رأس قوة كبيرة من

جيش سبأ ومن كبار (همدان) و(آل بتع) بتقوية سور مأرب وتحصينه وحمايته من مداهمة السيول له، وبإنشاء سدود وموانع لمنع الأمواج العاتية من اكتساح مأرب والأماكن الأخرى وذلك بمن جمعهم من الناس من سوادهم وساداتهم للقيام بهذه الأعمال(٢٩). وهذه إشارة مهمة إلى أن مأرب تظل مهددة بالسيول طوال فترتها، الأمر الذي يدعم القول إن سيل العرم فعلاً كان مسلطاً على مأرب وسدها في مختلف الفترات.

وهذا يذهب بنا بعيداً عن كل تلك التفاسير القائمة على التخرص أو رواة الأخبار بمبالغاتهم وعدم تنقيحهم للمعلومة والبحث عن مصادر موثوقة لها.

وبناء على هذه الدلائل المادية من النقوش؛ فعلى أية حادثة تهدُّم من أحداثه المختلفة يمكن أن نسقط عليها حادثة سيل العرم؟ وهل في كل حادثة تهدم يكون قد حدث سيل عرم فكان يتجدد بتجدد بناء السد، وبين بنائه وتهدُّمه عوامل مطردة؟!

إذا ما أُسقطت الآيات على مأرب وسدها فقط، فإننا من خلال الرؤية المجردة للمكان وبحثه سنلاحظ أنه لا يوجد خراب كبير حتى يضطر السكان للهجرة وانتهاء حضارة سبأ بهذا التهدم، ولا يمكن لليمنيين كلهم ترك بلادهم والهجرة منها إلى العالم بسبب السد؛ لأن الخراب سيكون محصوراً في مأرب فقط، واليمن وإمبراطوريتها كانت مترامية الأطراف، فإذا حصل خراب في مأرب فأين ذهبت بقية المدن وبقية السكان؟!

ومن خلال النقوش التي مرت بنا على ذكر من أقاموا سدوداً مختلفة وترميمات متعددة سنجد أن في مأرب حوالي ستة سدود مختلفة ذكرتها النقوش، ولم يذكر أي من تلك النقوش سد العرم (سد مأرب الكبير) إلا في الفترة المتأخرة بعد الميلاد، وقد كان السد يسمى بسد «رحبم» (رحاب).

فمثلاً: المكرب «سمه علي ينوف» ذكر أنه بنى سد «رحبم» (رحاب)، ولم يحدد مكان هذا السد، ثم جاء من بعده ابنه الملك «يثع أمر بين» وبنى سد

«حبيضم» (حبابض) ولم يعـرف مكانه بالضبط أيضاً، كما قام بتوسيع وترميم سـد «رحـاب»، وجاء مـن بعدهما «كرب إيل وتـر» وذكر أنه أنشأ سـدوداً، ونظم قنـوات للري، ووسَّع بعض السدود ليصل الماء إلى الحرتين اللتين لم يصل إليهما الماء للسقي.

لكن النقش الموسوم بـ Glaser ٥١٤ كان أكثر تخصيصاً للعمل الذي قام به المكرب "سمه علي ينوف" في أنه "ثقب حاجزًا من الحجر، وفتح ثغرة فيه لمرور الميـاه منها إلى سد "رحبم" "رحاب" لتسيل إلـى منطقة "يسرن" (يسران)، وهي منطقـة ورد اسمها في كتابات عديدة، وكانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتي بالماء من حوض هذا المسند، وتبتلع ماءها من مسيل "ذنَّة" وهو من المسايل الكبـيرة، فتغذي أرضًا خصبـة"[٣٠]، وهذا يكشف أنه لم يكن أول من بنى السد، فقد جاء على سد قائم وموجود، وإنما رمم بعض أجزائه ووسعه وقام بإصلاحات واستحداثات معينة فيه.

وهنـا تبرز العديد من الأسئلة: أيّ من هـذه السدود هو سد مأرب التاريخي والذي يسمى بسد العرم؟ وأين ذهبت كل تلك السدود التي لم يتبقَ لها أثر اليوم سـوى سد مأرب الكبير؟ أم إنها اندثرت وتهدمت فعلاً بفعل سيل العرم المذكور، أم إن سـد «رحبم» (رحاب) هو نفسه سد مـأرب فذاك اسم تخصيص والأخير نسبة للبلد؟!

الإجابة على هذه الأسئلة ستقودنا إلى تحديد خراب السدود، وتحديد تاريخ وزمـن سيـل العرم، وما شهدته اليمـن من هجرات أولية بطبيعـة الحال وليست هجـرات كبـيرة؛ لأن الحياة في مـأرب استمـرت والمملكة قائمـة والنقوش تدلنا علـى ذلك، إلا أن توجد فجوة تاريخية واكتشافات جديدة تقلب كل الاستنتاجات والمسلمات التاريخية وترتيبات الأحداث التي رتبها المؤرخون حتى اليوم.

وقـد ذُكر اسم السـد في كتابات عدة من أهمها كتابة تشـير إلى تعمير هذا

المكرب [سمه علي ينوف] سد «رحبم» «رحاب» للسيطرة على مياه الأمطار والاستفادة من السيول. وهو جزء من المشروع المعروف بـ «سد مأرب» الذي نما على مرور الأيام، وتوسع حتى كمل في زمن «شمر يهرعش» في نهاية القرن الثالث للميلاد، فصارت تستفيد منه مساحة واسعة من الأرض، وقد بقي قائمًا إلى قبيل الإسلام، وعُدَّ سقوطه نكبة كبيرة من النكبات التي أصابت العربية الجنوبية، حتى ضُرب بسقوطه المثل، فقيل: «تفرقوا أيدي سبأ»؛ ذلك لأن سقوطه أدى إلى تفرق السبئيين، وإلى هجرتهم من بلادهم التي ولدوا فيها، وإلى تفرقهم شذرَ مذرَ في البلاد(٣١).

لكن جواد علي كان أكثر تحديداً وتخصيصاً للانهيار الكبير الذي ورد في القرآن و«أن تلفًا أصابه بعد ذلك فيما بين السنة «٥٤٢ ب. م.» والسنة «٥٧٠ ب. م.»، فلم يصلح فترك الناس مزارعهم، واضطروا إلى الهجرة منها، وإلى ذلك وردت الإشارة في القرآن الكريم»(٣٢) أي قبل إعادة أبرهة الحبشي بناءه، وتمثل هذه الحادثة قاعدة أساسية اعتمد عليها الإخباريون في رواياتهم حول التهدم والتهجير.

وهنا لابد أن نشير إلى أن الآيات في القرآن الكريم خصت أهل سبأ بهذا الخراب، في حين لم تأتِ الأعوام ٥٤٢ – ٥٧٠ إلا وقد كانت نهاية الدولة الحميرية –بحسب بعض التصنيفات والتقسيمات– التي حكمت اليمن ونقلت العاصمة إلى ظفار يحصب، ومأرب لم تمثل بعدها أي ثقل لا سياسي ولا سكاني، والقرآن الكريم أكثر تحديداً وتخصيصاً ودقة وهو يذكر أهل سبأ، لو أراد الحميريين لأشار إلى التبابعة مثلاً، كما أشار إليهم في سور أخرى من القرآن ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾الدخان(٣٧). والقوم الذين عاقبهم الله أهل سبأ لا حمير، خاصة أن الذين طلبوا المباعدة في الأسفار هم السبئيون التجار المشتهرون بالتجارة وليس الحميريين، وبالتالي فإن السبئيين هم المخصوصون بالعقوبة،

ولو خص بسيل العرم السدود فقد كانت السدود منتشرة أكثر في يحصب وأكثر من مكان في اليمن في زمن الحميريين، وإليها تشير الأبيات المنسوبة إلى التبع أسعد الكامل بقوله:

وريْدانُ قَصْري في ظَفَار ومَنزلي بها أسَّ جدِّي دورَنا والمناهلا

على الجنَّة الخضراءِ من أرضِ يحصب ثمانونَ سدًّا تقذفُ الماءَ سائلا

مآثرُنا في الأرضِ تصدقُ قولَنا إذا ما طلبْنا شاهدًا أو دلائلا

كذلك فإن الفترة الحميرية وتاريخها هي من أصدق الفترات اليمنية تاريخاً وترابطاً ووضوحاً في تواريخها وأحداثها، ولم تكن فيها فجوات زمنية وحدثية كما هو الحال مع سبأ أو معين أو قتبان وأوسان وحضرموت، وأكثر الفترات تدويناً واهتماماً بالنقوش، فلو كان حدث السيل في عهدها لوجدناه مدوناً في نقش من النقوش إلا أن تكون هذه النقوش غير مكتشفة بعد.

غير أن كثيراً من المؤرخين والباحثين الآثاريين يقولون لا وجود لمسمى دولة حمير؛ فالدولة هي دولة سبأ تعاقبت عليها بعض الأسر ومنها أسر من الحميريين الريدانيين، خاصة وأن تسمية سبأ ظلت حتى الاحتلال الحبشي ومجيء أبرهة وهو آخر من تسمى بملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في طود وتهامة، وبالتالي فإن نعتهم في القرآن بالسبئيين صحيحة مائة في المائة.

ما نشاهده من بقايا سد مأرب اليوم ليس بما كان عليه من البناء الأول المتقدم لدولة سبأ، بل هو من آخر عملية للبناء في عهد أبرهة؛ لأننا لا نجد تلك المواصفات الأولى لاستخدام بعض المواد في البناء كالرصاص المذاب وغيره، ونظراً لتهدمه حوالي سبع مرات فإن ما بقي من أطلاله هو لآخر عملية بناء وترميم.

وعلى هذا الأمر فإن النقوش الموجودة اليوم على ما تبقى من آثار السد إنما هي نقوش قديمة في حجارة أعيد البناء بها وإضافتها إلى حائط السد، الأمر

الذي يعني ضياع الكثير منها في حوادث السيول المختلفة، وقد تكون مطمورة في الطمي والأتربة حول السد، وقد يتم الكشف يوماً ما عن نقوش أخرى للسد من تلك الحجارة المفقودة تقودنا إلى الباني الأول المؤسس للسد.

وهذا يؤازره التسمية الجديدة للسد (العرم) على اعتبار أنها تسمية حميرية ولفظ حميري دخيل على سبأ بدليل أن اللفظ (العرم) لم تذكره أيٌّ من النقوش السبئية بعكس النقوش الحميرية التي ثبتت هذه التسمية؛ إذ إن النقوش السبئية والمعينية والقتبانية كانت تطلق عليه اسم "مأذن" (سد) وليس "ع رم ن" (العرم) الذي ثبته القرآن الكريم.

كانت تسمية السد/الحاجز في القرن الأول ق.م يسمى "ك ل و ت ن" (كلوتن) كما في نقش RES- ٣٩١٣[٣٣].

كما أطلق الاسم «ح ر ت» (سد)، ولكن هنا يقصد به السد الصغير قليل الارتفاع وهو سد تصريف. وكذلك يسمى «ع ض د م» (سد تحويل).

في عهد الملك «شمر يهرعش» في القرن الثالث الميلادي حصلت أمطار وسيول جارفة أدت إلى تهدم سور المدينة وقصري همدان وبتع، وأمر الملك «شمر يهرعش» بإعادة أسوار وأبراج سور مدينة سبأ الذي تهدم بفعل السيول الجارفة (ذ ع ب ن).

كذلك فإن المسافة الزمنية بين آخر تهدم له أو بين عملية إصلاح له في عهد السبئيين كان في زمن «يدع إل وتر» قبل الميلاد، وبين عملية إنشاء وترميم وإصلاح في العهد الحميري بعد الميلاد وتحديداً في زمن الملك «شمر يهرعش» وما قام به من إصلاح، تعتبر مسافة زمنية بعيدة يرجح فيها أن سيل العرم كان ما بين هاتين الفترتين.

وهذه تعتبر ثلاث قرائن متتالية قد ترقى إلى مستوى أدلة بأن السيل حصل خلال هذه الفترة، وخرجت بعض الهجرات منها لتكوِّن الممالك الأخرى ولتكون

المسافـة الزمنية معقولة خلال القرن الأول قبل الميلاد أو القرن الأول بعد الميلاد لتكوين هذه الممالك؛ إذ لا يعقل أن يتم إنشاء ممالك قوية إلى حد ما (الغساسنة في الشـام والمناذرة في العراق، والأزد في عمان) في الفترة البسيطة قبل الإسلام علـى رأي مـن يقـول إن العرم جاء بعـد إنشاء أبرهـة الحبشي السـد أو في آخر إصلاح له قبل أبرهة في عهد شرح إل يعفر.

هنـاك قرينة رابعة أيضـاً ترقى إلى مستوى الدليـل وهي في نقش (GAM ٦٧١) في عهـد الملكين «ثاران يهنعم» وابنه «ملك كرب يأمن»، ذكر هذا النقش أن الملك «ثاران يهنعم» أمر الجيش والأعراب المناصرين التوجه إلى السد (عرمن) الذي تهدم عند موضع حبابض (ثبرت عرمن بحبيض) وموضع رحبتن (الرحبة) فتداعت جدرانـه ومبانيه وأحواضـه وسدوده الفرعية و«مضرفـن» (مضارفه) وخرب ما مقـداره سبعون (شوحطم) وحمدوا الإله المقه وسبحوه؛ لأنه استجاب لدعائهم فحبـس الأمطار والسيول والأمواج عنهم حتى تم العمل وأقاموا الأسس والجدران والسد[٣٤].

وهنـا في هذه الفترة، وفي هذا النقش، ظهـر أول ذكر لتسمية السد بالعرم، وذكره بلفظ «ع ر م ن» (العرم).

ويظهر من خلال النقش أنهم مازالوا على دين الوثنية قبل أن يؤمنوا بديانة التوحيـد التي آمنوا بها من بعد هذا الملك، من خلال هذا المعتقد بغير الله يمكن أن يكون السيل هذا أيضاً ضمن العقوبة المرسلة عليهم.

ومـن خلال سياق النصـ فإن هذا الخـراب والتهدم لم يكـن بذلك الكبير الـذي يدمر المنطقـة ويهجر أهلهـا ويمزقهم في الأرض، فقـد تم تلافي الخراب وإصلاحـه، لكن ما يستشهد منه على وجه التحديد أن أمر السيول مشكلة مؤرقة لمأرب وللسدود عموماً، وتظل تهديداً قائماً.

ولذلـك نجـد معظـم النقوش في الفـترة السبئيـة المتأخرة، والتـي يسميها البعـض بالعهد الحميري (بعد الميلاد)، والتي تذكر سد مأرب وسيولها، تتحدث هـذه النقوش إمـا عن خراب السـد، أو تقديم نذور وقرابـين لحمايته من التلف والضـرر، بعكـس بعض النقوش القديمة التي لم تذكـر إلا تهـدم السد وعملية إصلاحـه وترميمـه، وهي قليلة بالنظر إلى العهود المتأخـرة، مما يعزز القول إن سيل العرم المذكور في القرآن إنما كان في العهود المتأخرة لسبأ، ومن دقة القرآن لتقرير واقع الحال أنه ذكرها باسم سبأ ولم تذكر باسم حمير.

فنجـد هذا الخراب المتعدد للسد، حتى في إطـار حكم الملك الواحد يتعرض السـد لعدة انهيارات وإصلاحات، سواء كانت جزئية أم كلية، مما يعكس أهميته الكبرى لدى السبئيين.

ففـي عهـد الملك «شرح إل يعفر بـن أبي كرب أسعد» [أسعـد الكامل] تهدم السـد مرتـين؛ حيث قام بإصلاحـه الإصلاح الأول سنـة ٥٦٤ح و٥٦٥ح = ٤٤٩م و٤٥٠م، بحسـب نص مسنـدي (GLASER ٥٥٤)، وهو وثيقة تتعلق بسد مأرب الشهـير، ذكـر فيه هذين الإصلاحين وحجـم الإنفاق عليهما، ومقـدار المشاركة المجتمعية في البناء، وخارطة توزيع العمل والمشاركة بين القبائل اليمنية[٣٥].

لم يلبـث هـذا الإصلاح فـترة بسيطة،فنقشٌ يذكره بعام واحـد، ونقش آخر يذكـر بستـة أعوام حتى أتى سيـل كبير خرَّبه مجدداً، ثـم تم الإصلاح الآخر في السنـة التي تليهـا (أيضاً موضـح في نفس النقـش المسندي)، مـا اضطر بعض المزارعين إلى الهجرة وترك المنطقة.

في حـين ذُكـر، في موضع آخر عند دارسـين آخرين وبنقش آخـر، أن عملية الإصـلاح الثالثة كانت سنـة ٤٥٧م، أي بعد سبعة أعوام مـن التهدم الأول وليس عامـاً واحداً، كما يذكـره النقش الآخر الـذي يرمز إليه بـB،Gar Sharahbil A[٣٦]. ممـا يعنـي أن عملية انهيار السد وإصلاحه،ففـي عهد «شرحبئل» حدثت ثلاثـة تهدمات وإصلاحـات؛ الأول وقد قام بإصلاحه، والثـاني الذي حدث بعد

الإصـلاح الأول بعـام واحـد، والثالث الـذي تم إصلاحـه بعد سبـع سنوات من الحادثـة الأولى، خاصة وأن نقشين لـ «شرحبئل يعفر» يذكران العام الأول وسبعة أعـوام أخرى، مما يعني أن هذه الحوادث المتعاقبـة جعلت هؤلاء القوم ييأسون، وربما ترتبت عليه بعض الهجرات.

ومـع كل عملية إصلاح مـن هذه الإصلاحات يتم إدخال مـواد جديدة تكون متينـة وداعمة لهذه الإصلاحات وتقوية السد، ومن ذلك ما ذكره النقش السابق لشرحبئـل يعفر الـذي يرمز إليـه بـ CIH٥٤٠من أنهم طعَّمـوا الحجارة وشقوق السـد بصفائح الحديد وبالقمـط (الملازم) المثبتة للجدران، كمـا دعموا أسفل السد بحجارة أخرى، وأزالوا الطمي والترسبات من أسفل السد[٣٧].

ومـن ناحيـة الشواهـد المادية وذكر هـذه الهجرة في النصـ، تعتبر الأقرب إلـى روايـة الإخباريين بتفرق أيـادي سبأ، وحادثـة سيل العـرم في القرآن، لكن تلـك الهجرات كانـت بسيطة جداً لبعض المزارعين المقيمـين حوالي السد الذين خافوا من تكرار مداهمة السيول لأراضيهم، وكانت الهجرة الداخلية إلى المناطق الجبليـة ومنهـا صنعاء، وهنا بدأ نجم صنعاء في الظهور، لكن على أية حال تظل هي الأقرب إلى واقع الهدم والتهجير ولو بنسبة معينة.

فقـد ذكر في النص هجرة بعضـ المزارعين والقبائل من حـول السد، ولكن اقتصـر على منطقة الرحبة الذي يسمى السد باسمها، ولم تُذكر أسماء القبائل التـي هاجرت، ولـو كان النص دوَّن اسـم القبائل التي هاجرت لـكان سهَّل على المؤرخين والباحثين اليوم كثيراً من تلك المعضلات.

لكـن من نواحي أخرى لم تكن بمقدار تلك الهجرة التي تم المبالغة فيها، وأن شعوبـاً وممالك أخرى نمت وترعرعت بسببها، ولم تكـن هجرة خارجية كبيرة، فهي قبل البعثة النبوية بأقل من مائتي عام، إلا أن تكون هجرة أسرية تغلبت على ملك قبائل أخرى بعد فترة من الزمن فصارت تنسب إليها.

الأمـر الآخـر من شواهـد النص اللغويـة والعقائدية الدينيـة لم تذكر لفظ «العـرم»، ولم تصوِّر حجم السيـل إن كان كبيراً أو أقل من كبير، ذلك الذي ترك صـدىً تاريخيـاً حد نزول آيات قرآنيـة توثقه، والذي كان يعتـبر أكبر من زلزال للمنطقة.

فالآيـات القرآنيـة تقـول إن السيـل أرسـل عقوبـة علـى أهـل سبـأ بسبـب الإعراض والكفـر بأنعـم الله، وبسبـب تجـاري وطلـب بعـد الأسفـار ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ... ﴾سبـأ(٢١٩) أيضاً، في حين النص المسندي يوثق أنهم كانوا على ديانة التوحيد المؤمنة بإله السموات والأرض، ومفتتح النص يذكر هـذا الأمر بالقول: «بنصر ورداء إلهن بعل سمـين وأرضن...»، أي: بنصر وعون إله السموات والأرض تم هذا العمل!

الملاحـظ في النقش الأول ((CIH ٥٥٤لشرحبئل أنه لم يذكر إله السموات، وكان فيـه نقصـ....، ولا أية آلهـة أخرى، في حين ذكر النقـش الأخير (B.Gar Sharahbil A) إله السموات والأرض، وهذا يعني تحولاً عقائدياً في عهده.

لكـن يبقى هذا النصـ، وهذا الحدث، هو أقرب الشواهـد والدلائل للحدث وللواقـع الجديد بعده مـن هجرة وغـيره، باستثناء معارضة الآيـات في الجانب العقائدي، والترحال أيضاً (باعد بين أسفارنا)، وهذا يدعم ما أشرنا إليه سابقاً أن الإعراض والكفر لم يكونا كفراً عقائدياً دينيـاً، بل كفر النعمة والبطر وعدم الشكر.

لكن في كل الأحوال استمرت مأرب في الزراعة، واستمرت واحدة من العواصم السياسيـة للدولة، ولم يتم هجرها هجراً كاملاً، واستمرت كذلك عمليات إعادة بنـاء السد وإصلاحاته وترميماته، كما تقول الشواهد النصية للنقوش المسندية، وبعدهـا كان الإصلاح الأخـير لأبرهة الحبشي وتهدمه بعـد ذلك التهدم الأخير أيضاً.

ونجـد أن بين عمليـة الإصلاح الأخـيرة (الثالثة) في عهد الملـك «شرحبئل يعفـر» وبـين إصـلاح أبرهة قرابـة مائة عـام، إذ كان الإصـلاح الأخير في عهد شرحبئـل عام ٤٥٧م، وفي عهد أبرهة ٥٤٣م، بمعنـى أن التهدم الرابع للسد كان بعد شرحبئل مما اضطر أبرهة الحبشي لإعادة بنائه، وكان هو البناء الأخير.

خلال هذه الفترة حصلت صراعات داخلية وضعف داخل الدولة السبئية، فكان الاحتلال الحبشي الثالث لليمن، وهي قرينة تساند الآيات ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

مـن يزر أرض السد ومجرى السيل منه لا يجد آثـاراً لخراب كبير يمكن له تهجـير كافة السكان مـن مأرب، فما وجدنـاه عبارة عن قنـاة (سائلة) بسيطة انسيابيـة للماء حتى يصل وجهته، وقد كانت مدن وقرى مأرب تقع على هضابها المرتفعة قليلاً عن مستوى سطح الأرض، لا تصل إليها مياه السد بالخراب، وخير شاهـد علـى ذلك عاصمة المدينة القديمة التي كانـت في أجمة مرتفعة قليلاً عن سطح الأرض.

ثـم إن السد لم يكن كافياً لسقيا جنتين لحضارة ممتدة طولاً وعرضاً ولو في مأرب وحدها كحقول زراعية مترامية الأطراف؛ فلقد كان السد أقل حجماً بكثير ممـا هو عليه اليوم، وأراضي مـأرب الزراعية لم تكن هي المعروفة اليوم، بل إنها على امتداد المنطقة كلهـا، وقد غطتها الرمال بفعل التصحر الزاحف عليها؛ أي أن هنـاك عوامل ريٍّ أخرى غير السد. فالسد الـذي كان مبنياً بالمواصفات التي وردت في نقش أبرهة الحبشـي بارتفاع واحد وأربعين ذراعـاً، وطول ٤٥ ذراعاً، وعرض أربعة عشر ذراعاً، كمـا قدر أنه يسقـي ٩٦٠٠ هكتار. وعلى المجمل فقد «كان سعة السد المائية تقدر «بحوالي ٥٥ مليون متر مكعب»[٣٨].

في اعتقادي أن السيل لم يكن مقتصراً على مأرب فقط، وإن كان هو الأبرز، بـل كان في عموم اليمن، وربما في وقت واحد بسبب دخول اليمن بما يسمى اليوم منخفضاً جوياً داهم معظم الأراضي اليمنية بحيث خربت معظم زراعة اليمنيين،

خاصــة وأن اليمنيين يعتمدون على سيــول الأمطار وجريان الأودية لري زراعتهم كما هو حال أودية تهامة وأبين وتعز وغيرها، وما بين فترة زمنية وأخرى تتعرض كثـير من الأودية اليمنية لسيول جارفة تخرب معها الكثير من المزارع، وهو أشبه بطوفان نوح الذي عمَّ الأرض، وهذا باعتقادي عمَّ اليمن كلها.

تسمية العرم:

بإلقاء نظرة جوية على جبلي السد عن يمين وشمال سنجد أنه أشبه بحاجب وسد جبلي طبيعي منتهى سلسلة الجبال الغربية والشمالية الغربية وبداية السهل والصحراء، جعلت وسطها ثغرة بشكل ميزاب إذا سُدت كونت بحيرة طبيعية.

هــذا الحاجــب الحاجز من خلال صفتــه، فهو يشبه «العُــرم»، وربما جاءت التسميــة من هــذه الصفة المكانية والجغرافية.ففي اللغــة اليمنية القديمة والتي مــا زالت محكية إلى اليوم فإن كثيراً مــن اليمنيين يسمي حاجب العين «عُرماً».. (تنظر الصورة رقم١).

وكثـيرة هي المناطق في اليمن التي تسمى «العُــرْم» من مناطق جبلية، ومنها منطقة العرم بين شبوة وأبين مثلاً.

وغالباً تطلــق التسميات عند اليمنيين على الأماكن من خلال صفاتها وواقع حالها.

«ويقــال للسد (عرمن) في العربيات الجنوبيــة، أي: العرم، فلفظة (العرم) تعني السد عند اليمانيين القدماء، ولم تكن علماً على سد معين، أعني سد مأرب. وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾» (٣٩).

وهنــاك عدة تفسيرات لمسمى «العــرم» في القرآن، فمن قائل أنه لفظ يماني يطلــق على السيل الكبير، ومن قائل بأنــه الحاجب وهو السد، ومن قائل هو اسم السد، ومن قائل إنه اسم المنطقة والجبل القائم عليها السد.

ونجد في لسان العرب لابن منظور أن للفظ عدة معانٍ وأوصاف كلها تنطبق على حال سد مأرب، فهو يعني السد، ويعني الحاجز، ويعني الوادي، واسم من أسماء الجرذ، وهو المسناة (ثغرة جبل، ثغرة الشيء)، والشديد، والكثير، والسيل، والمُزارِع ...إلخ. وأنشد بن بري للجعدي:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما[٤٠]

ويبدو تعاضد كل هذه الألفاظ التعريفية لمكان واحد هو الذي غلب رواية أن سيل العرم تم إسقاطه على السد.

فالنقوش السبئية تسمي السيل الجارف«ذ ع ب ن»، كما في نقش(JA٧٣٥) الذي يؤرخ بسنة تبع «كرب بن ودد إل بن كبر»، ويتحدث عن أمطار غزيرة وسيول جارفة في مأرب[٤١]، ويعود للقرن الثالث الميلادي في عهد الملك «نشأ كرب يأمن يهرجب».

من خلال التاريخ القديم لإنشاء السد، كما دونته النقوش، لم تذكر نقوش ما قبل الميلاد اسم «العرم» على السد، وإنما ظهرت التسمية بنقوش ما بعد الميلاد، مثل نقش (GAM٦٧١) أو نقش أبرهة الحبشي فقط.

يقول نقش GAM: "بكن/ ثبرت/ عرمن" أي: عندما تصدع العرم (السد). والنقش -في مجمله- يتحدث عن عملية إصلاح سد مأرب في عهد الملكين "ثأران يهنعم" وابنه "ملكي كرب يهأمن" في منتصف القرن الرابع الميلادي..والعرم والعريم هو الحاجز في لهجة أهل اليمن اليوم[٤٢].

لم نجد هذه التسمية (العرم) في النقوش السبئية الأولى، لكننا وجدناها في النقوش السبئية المتأخرة، والتي تسمى بالفترة الحميرية، مما يعني أن لفظ «العرم» حميري مستحدث، وسمي السد باسمه لاحقاً في الفترة الحميرية، وهذه إشارة هامة على أن سيل العرم حدث في الفترة الحميرية المتأخرة.

بـدأت تسمية السد بالعـرم مع بداية القرن الرابع الميـلادي في عهد الملكين «ثـاران يهنعـم» وابنه «ملـك كرب يهأمـن»، ورد ذلك في نقش الملكـين السابقين والمرمـوز لـه بـ(JA ٦٧١ =MaMB ٢٩٤)[٤٣]، ثـم بعد ذلك تكـررت التسمية في نقش «شرحبئـل يعفـر» وما بعد ذلك مـن النقوش إلى العهـد الأخير لأبرهة الحبشي.

كمـا إن تسميـة «العرم» ليست عامة على كل سد مـن سدود اليمن المختلفة، وإنمـا اسـم خاص بسد مـأرب، والـذي كان قبل الميـلاد يسمى سـد «ر ح ب م» (رحـاب)، وهذه دلالة أخرى على أن السيل فعلاً كان مسلطاً على سد مأرب دون غيره من السدود، وهو المهدد دائماً بالانهيار جراء السيول المتدفقة.

وقـد جاء في نقـش أبرهة الحبشي، الذي جدد فيه بنـاء السد سنة ٦٥٨ح= ٥٤٣م اسمـه (عرن) وليس عرم، ومعلوم عملية إبدال الحروف في لهجات اليمن بين الميم والنون، فيسمى أحيانًا «عرم» وأخرى «عرن»، أو أنه قد سقط حرف الميم عن الناقل أو انمحى أثره، ويعني (ع ر م ن) كما هو الاسم في نقش GAM٧٦١.

مع أن "العرن" يقصد به أحياناً (الحصن)، كما جاء في نقش RES ٢٦٣٣ وCIH ٦٢١الذي يتحدث عن ترميم "ع ر ن/ موي ت" (حصن ماوية) في شوبة قديما، والذي يسمى اليوم بئر علي[٤٤].

وأيـا تكن التفسيرات لهـذا اللفظ، ولو افترضنـا أيضـاً صحة إسقاطها على السد والسيل معاً، فإننا لا نستطيع تجاوز وتغافل الأدلة المادية على أن السد تهدم بالسيـل لحوالي ٦ مرات أو تزيد، وأن الخراب كان محدوداً للغاية، وبقيت البلاد عامرة بأهلها ولم يهاجروا بشكل كلي.

وكمـا هو الحـال والوضـع والتساؤل الذي يتكـرر في كل مـرة: لم تذكر تلك النقوش هجـرات كبـيرة، وعلـى أي عهد منها يمكـن أن نسقط تلـك الهجرات والسيل المخصص في القرآن؟!

فهل في كل سيل من تلك السيول التي هدمت السد يمكننا أن نطلق عليه نفس التسمية (العرم)؟!

لتحليل اللفظ الوارد في القرآن الكريم فإن اللفظ «سيل» كان نكرة، لكن بإضافته إلى معرفة وهو (العرم) يصير معرفة لا نكرة، و«العرم» هنا اسم معرف أيضاً للسد لا صفة للسيل، بل إن السيل هو المضاف لهذا «العلم»، وبالتالي فإن «العرم» هو اسم للمكان الذي انطلق منه السيل أو الذي جرفه السيل مثلاً.

وإذا كان الاسم معرفاً فإنه يكون مقصوراً وأكثر تمييزاً وتحديداً للأشياء وعلى استعمال اسم بعينه، بعكس التنكير الذي يكون مبهماً ومفتوحاً على كثير من التأويلات والاستعمالات.

قصة الفأر/الجرذ:

راجت عند الإخباريين قصة خرافية كانت العامل الأهم في تهدم سد مأرب، وهي قصة الفأر أو الجرذ الذي نحت حجارة السد لينخره من الداخل ليسهل على السيل بعد ذلك تحطيم السد وجرفه.

فلا يكاد يذكر سد مأرب عند الإخباريين إلا وذكر معه الفأر (السبب)، وقصة التنجيم الحاصلة في تهدم السد.

فقد جاءت في تفسير ابن كثير مثلاً قصص كثيرة ملخصها: «وذكر غير واحد ومنهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله -عز وجل- لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها «الجرذ» نقبته، قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب

هذا السد هو الجرذ، فكانوا يرصدون عنده السنانير برهةً من الزمان، فلما جاء القَدر غلبت الفأرُ السنانير، وولجت إلى السد فنقبته، فانهار عليهم»[٤٥].

ومضى أكثر الإخباريين في مثل هذه القصة التي وردت عندهم كابن إسحاق وابن الأثير وغيرهما، حتى صارت مصادر يستقي منها كلُّ باحث مقلد غير حصيف، وتُردد في أبحاث اليوم، وتغرق بها وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة.

فمن ذلك مثلاً ما ذكره البلاذري: «ثم إن من كان باليمن من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بغوا وطغوا وكفروا نعمة ربهم فيما آتاهم من الخصب ورفاهة العيش، فخلق الله جرذاناً جعلت تنقب سداً كان لهم بين جبلين فيه أنابيب يفتحونها إذا شاؤوا فيأتيهم الماء منها على قدر حاجتهم وإرادتهم. والسد العرم فلم تزل تلك الجرذان تعمل في ذلك العرم حتى خرقته، فأغرق الله تعالى جناتهم وذهب بأشجارهم، وأبدلهم خمطًا وأثلاً وشيئاً من سدر قليل!»[٤٦].

وورد في مروج الذهب للمسعودي كذلك: «ولا خلاف بين ذوي الدراية منهم، أن العرم هو المسناة التي قد أحكموا عملها لتكون حاجزاً بين ضياعهم وبين السيل ففجرته فأرة، ليكون ذلك أظهر في الأعجوبة...»[٤٧].

فتعالوا نفند هذه القصة عقلاً ومنطقاً وواقعاً.

ومما جاء عند هؤلاء في مواصفات الجرذ/الفأر أنه بمقدار الخنزير البري يقلب الصخرة الكبيرة التي لا يستطيع قلبها عشرة رجال. وذكرت قصة الكاهنة طريفة مع عمرو مزيقياء، ومما قالته لهم: «انطلقوا إلى رأس الوادي وسترون الجُرَّذ العادي يجر كل صخرة صيخاد، بأنياب حداد، وأظفار شداد. فانطلق عمران في نفر من قومه حتى أشرفوا على السد، فإذا هم بجرذان حمر يحفرن السد الذي يليها بأنيابها، فتقتلع الحجر الذي لا يستقله مائة رجل، ثم تدفعه

بمخاليب رجليها حتى يسد به الوادي مما يلي البحر ويفتح مما يلي السد، فلما نظروا ذلك علموا أنها صدقت...إلخ!»[٤٨].

لا تستطيع الجرذان نحت الصخور الصلبة؛ إذ لا تمتلك الوسيلة لذلك أصلاً، فأسنانها لا تؤهلها لذلك النحت، ولن تكون أقوى صلابة من الصخر، في حين هؤلاء جعلوا لها أنياباً من حديد، وأظفاراً صلبة!!

حتى لو تم مجاراتهم بوسائلها تلك، فإن أنيابها وأظفارها تكون صغيرة جداً بالقياس إلى جرذ أو فأر، لنفترض حتى أنه قدر الخنزير فإن الصخر الكبير ذاك لا تقتلعه إلا الزبر الصلبة، ولم يعرف في الأرض منذ أن خلقها الله مواصفات حيوان بهذه الصلابة والحدة والشدة على صغره!

ولم يُسلِّم الكثير من المؤلفين والباحثين العرب بهذه الروايات التي اعتبروها خرافية وبعيدة عن الحقائق والواقع. وقد جاء في كتاب المعجم الجامع..، أنه «أوردت عدد من كتب التفسير والتاريخ قصصاً وحكايات حول كيفية انهيار السد وبداية السيل، ومن هو أول من تنبأ به وكيف بدأت هجرة القبائل من اليمن بعد أن عاشوا في رغد من العيش. ويروى أن الله تعالى أرسل إليهم عدداً من الرسل والأنبياء أوصلهم البعض إلى ١٢ ألف نبي يدعونهم إلى الإسلام. وتورد هذه المصادر قصة الفأر ذي المخالب الحديدية الذي حفر صخور السد وتمكن من قلب حجارته الضخمة، إلى غير ذلك من القصص الخرافية التي تبعد عن الحقيقة والواقع التاريخي والآثاري»[٤٩].

وللأسف الشديد فإن بعض المؤرخين اليمنيين المقلدين للإخباريين القدماء، وكذلك الإعلاميين اليوم، ما زالوا يرددون أساطيرهم تلك في رواياتهم وكتبهم، ووسائل الإعلام المختلفة تشويهًا لتاريخهم وتسليماً بأساطير مفتراة، ومن ذلك مثلاً ما نسب لعمارة الحكمي من أبيات يقول فيها:

إذا لم يسالمك الزمانُ فحاربِ وباعِد إذا لم تنتفعْ بالأقاربِ

ولا تحتقِر كيدَ الضَّعيف فربما تموتُ الأفاعي من سموم العقاربِ

فقد هدم عرشَ بلقيس هدهدٌ وخرَّب فأر قبل ذا سدّ مأربِ (٥٠)

ونجد أن المؤرخ جواد علي، كمؤرخ حصيف، لم يتطرق حتى إلى رواية الإخباريين في قصة الفأر، لا من قريب ولا من بعيد، ويبدو أنه تجاهلها عن عمد، مع أنه كان يفند آراءهم الأخرى بشأن الأساطير التاريخية.

فعوامل اندفاع السيول وتقادم أبنية السدود هي التي تهدم السدود لا شيء آخر، مهما ألفت الأساطير والقصص حول ذلك.

وبحسب المهندسين المعماريين اليوم فإنهم يتجنبون إنشاء السدود والحواجز المائية عند مساقط الجبال المرتفعة؛ لأن اندفاعات السيول تكون أكبر، فلا يصمد سدٌّ مهما كانت صلابته وقوته أمام هذه المساقط واندفاعة السيول.

وقد كان سد مأرب حاجزاً عند أهم ثغرة ومسناة/ميزاب لسلاسل متعددة من الجبال التي تتجمع سيولها في وادي أذنة، فتمر من تلك الثغرة/الميزاب من مكان السد، حيث تأتي هذه السيول من صنعاء وخولان وذمار وجهران ورداع وغيرها من المناطق، فتتجمع من كل شرايين وميازيب تلك المناطق والجبال، وتصل إلى حيث السد، مما يعني اندفاعة شديدة لسيول ضخمة جاءت في توقيت واحد طمت كل منطقة السد بما فيها السد، فهدمته، ولا تحتاج لفتح ثغرة وسط حائط السد.

وخلال هذه السيول تتجمع ملايين الأطنان من الطمي التي تحمله السيول، فتزيد من قوة السيل في اصطدام الجدار.

هذا الطمي لابد وأن السبئيين قد وضعوه في الاعتبار أثناء التشييد، لذلك «أقام السبئيون القدماء سد مأرب لاحتواء تلك السيول للسيطرة عليها مع ما

تحمله من طمي وأحجار وأشجار، ثم ليصمد أمام قوة اندفاعها دون أن يتصدع، مؤدياً الغرض من إقامته، وهو تحويل السيول إلى قنوات الري التي تسقي الحقول على جانبي وادي أذنة أطول فترة ممكنة. ولا ريب أنهم كانوا يدركون أن ذلك يقتضي تشييد سد قوي ومحكم يفوق طاقته إمكانات سدٍّ عادي»[٥١].

عن يمين وشمال:

ما المقصود عن يمين وشمال؟ هل عن يمين السد وشماله أم عن يمين اليمن كلها وشمالها؟ أم عن يمين البحر الأحمر وشماله على اعتبار التمدد الجغرافي لمملكة سبأ إلى أفريقيا؟

تكاد تجمع كل الروايات التي تحدثت عن حادثة السيل، وكما وردت في القرآن الكريم على أنها في مأرب؛ عن يمين وشمال السد لا في مكان آخر. وهذا وارد في سياق الآيات القرآنية المتحدثة عن الجنتين والسيل.

مع أنه قد لا يكون المقصود بها جنتين عن يمين السد وشماله بالمعنى الحرفي، فمن ينظر لمنطقة السد عبر الخرائط والإسقاطات الجوية باستعمال تقنية "جوجل إرث" مثلاً سيجد أن يمين السد وشماله عبارة عن سلاسل جبلية بركانية نارية على هيئة حِرار لا تزرع، وبعضها رملية صحراوية، ولم تكن أراضي زراعية منبسطة، فالأراضي الزراعية الخصبة لم تكن إلا ما دون السد شمالاً، وقد يكون المقصود بذكر الاتجاهات بالقرآن معناه التعدد والكثرة في كل الأراضي اليمنية، كما في ألفاظ أخرى (ذات اليمين وذات الشمال) مثلاً.

حتى النقوش المختلفة التي ذكرت السد والسيول والأراضي لم تكن تصفها بذلك الوصف المبهر في القرآن الكريم (جنتين)، أو كما عند المفسرين والإخباريين، وإنما كانت تتحدث عن أراضٍ زراعية تسقى من السد، وتظل مهددة بالسيول.

كما إن الأراضي الزراعية خلف السد في ذات الوادي ليست بالكبيرة التي يمكن وصفها بـ(الآية)، مع أن الجنة قد تكون صغيرة كما في آيات أخرى من القرآن، كما في سورة الكهف أو سورة القلم أو سورة البقرة: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الكهف (٣٢)، لكن هاتين الجنتين المذكورتين في سورة «سبأ» علاوة على وصفهما بالجنتين فقد زاد من وصفهما وإيضاحهما بأنهما (آية) وبلدة طيبة. فمعظم الأراضي اليمنية في أوديتها المختلفة هي جنان متعددة وتزرع أفضل أنواع الفواكه والمحاصيل الزراعية المختلفة، وأيا اتجهت منها ستجدها جناناً عن اليمين وعن الشمال في الوديان أيضاً.

غير أن المقصود بالجنة هنا هو البستان الذي يحوي كل أنواع الثمار، ولا توصف الأرض الزراعية المقتصرة على نوع أو نوعين من الزراعة بالجنة إلا أن تكون شاملة لكل أنواع الفواكه.

من خلال الإسقاطات الجوية لجغرافية سبأ الممتدة حتى الحبشة من أفريقيا، نجد أن كل هذه الأراضي يفصلها أخدود البحر الأحمر ويشطرها إلى نصفين، وبالتالي قد يكون المقصود بيمين وشمال هما يمين البحر وشِماله، وكلاهما تزرع أنواع الثمار، ومظهرها يكون أثناء الزراعة خلاباً يمكن أن يتم وصفهما بجنتين عن يمين وشمال، وبعد الإعراض عن شكر النعمة تم التمزيق والمباعدة بين شعوب الدولة المختلفة وصارت عملية التمزيق المختلفة.

لكن النقوش اليمنية وهي تتحدث عن السد وأحداثه تعتبر من الزمن المتأخر الذي صارت فيه الحبشة (أكسوم) دولة قوية ومستقلة بعيدة عن النفوذ السبئي، وهذا يجعل من مجرد التفكير في أمر سبأ والبحر الأحمر والحبشة شيئاً غير منطقي.

هجرة اليمنيين بعد السد:

بعـد كل تلك الأحداث التي رويت في كتـب الإخباريين عن سيل العرم وتهدم السد وتفرق اليمنيين؛ راجت مقولة عن التفرق وصارت مضرب المثل بين العرب، وهـي مقولة «تفرقت أيدي سبـأ»، أي:خرجوا من اليمن متفرقين في البلاد، فقيل لكل جماعة تفرقت «ذهبوا أيدي سبأ»[٥٢].

من خلال الواقع الميداني للزائر لمنطقة السد وما حولها لا نجد خراباً كبيراً بحيـث يهجِّر هذا الخرابُ اليمنيين من موطنهم، فالخراب محدود جداً، ويمكن إصلاحـه من قبل البسطاء؛ لأن مجرى السيل كان صغيراً، وهو عبارة عن جدول كبـير، وبقيت معظـم الأراضي حول الجدول صالحة إلى اليـوم؛ لأن السد تأثيره محدود فيما حوله فقط،وبالتالي بقيت معظم أراضي مأرب صالحة للزراعة، ولم يصبها الأذى، وهي تلك البعيدة عن السد ومجرى سيوله.

ولنفترضـ أن خراب السيل فعلاً كان للسد، فإن الأراضي المخربة قليلة جداً حـول السـد في وادٍ بسيط ومحـدود لم يطَل خرابه الأرض كلهـا، وهذا ما يتضح للزائـر على الأرض، ومعظم مأرب بقيـت صالحة على حالها، إلا أن يكون لحقها جدب فترة من الزمن جعلها بيئة غير صالحة للإقامة وطاردة لأهلها السكان.

لكـن تعالوا بنا إلـى ناحية أخرى من خلال النقوش المتعاقبة؛ إذ لم يدوِّن أيٌّ من النقوش هجـرة لليمنيين ورحيلاً كبيراً ولا جدباً ولا آفات أو هلاكًا، باستثناء نقش «شرحبئـل يعفر» الذي يحمل رمـز (GLASER – ٥٥٤ وCIH ٥٤٠)، فقد بـيَّن بعض الهجـرات البسيطـة، والأمراضـ والموت الـذي خلفه التهـدم الثاني للسـد في عهـد شرحبئل يعفـر سنـة ٥٦٤ح و٥٦٥ح = ٤٤٩م و٤٥٠م، لكن تعاقب النقوشـ في مأرب كلهـا وما حولها، وتدوين مختلف الأحـداث يدل على استقرار تـام للسبئيين والمعينيـين والحميريين الساكنين تلك الأراضـي، إلا من صراعات سياسية وعسكرية، وهذا سيكون واحداً من أسباب الهجرات.

كل سلسلة المكاربة والملوك التي وضعها المؤرخون والباحثون الآثاريون من خلال سلسلة النقوش المستفيضة في مأرب لم تذكر هجرة ورحيلاً لليمنيين منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي، الذي شهد هجرات متعددة بفعل تحولات الأحداث في الجزيرة العربية والتحاق اليمنيين بالإسلام وبالعاصمة الإسلامية المدينة المنورة، والتفرق بعد ذلك في جيوش الفاتحين للأمصار والاستقرار فيها.

وكذلك لم تذكر كل تلك السلسلة أن انقطع الحكم والملوك عن الممالك اليمنية المختلفة من معينية وسبئية وقتبانية وحضرمية باستثناء انقطاع أوسان لمداهمتها من قبل سبأ، أو معين أثناء الانقلاب السبئي عليها ودخولها ضمن مملكة سبأ والانصهار فيها.

وهنا إما أن يكون الرحيل والهجرة الخارجية بشكل قبلي وأسري، بدليل أن الشعوب التي نشأت في شمال الجزيرة العربية وشرقها وبلاد الشام والعراق وعمان كانت على أساس من الوحدة المجتمعية الأسرية والقبلية من غساسنة ومناذرة وأزد أو يثرب من أوس وخزرج وغيرها، أو أن الهجرة كانت في الألفية الثانية قبل الميلاد، وهناك احتمال ثالث وارد هنا وهو نظراً للفجوات التاريخية اليمنية في التدوين، فقد تكون وقعت الهجرة فعلاً في أواخر الألفية الأولى قبل الميلاد، وما تزال طي الكتمان والاندثار، قد تظهر من خلال نقوش مدونة في اكتشافات لاحقة.

كانت هجرة الأوسانيين، وبعد ذلك بزمن القتبانيين، على أساس من تكوين سياسي، وكانت هجرتهم بفعل الصراع السياسي والتهجير التي قام بها «كرب إيل وتر»، وبشكل جماعي نحو الحبشة والقرن الأفريقي، وتشتتهم وسط الجزيرة، ومحلياً داخل الوطن الأم.

وحتى الأوسانيون الذين تم تهجيرهم في القرن السابع ق.م إلى أفريقيا

إنما رحلوا إليها ليلحقـوا بأهلهم اليمنيين هناك، المتواجدين من قبل، فالنقوش السبئيـة في الحبشـة تعود إلى القـرن العاشر ق.م، مما يدل علـى أن سبأ كانت مزدهـرة قبـل تلك القرون، تمدد حكمهـا إلى أثيوبيا وموزمبيـق وزيمباوي، كما تقـول النقوش السبئية هناك، وما ذكره المؤرخـون أن تاريخ سبأ يعود إلى القرن الثامـن أو العاشـر قبـل الميلاد، كما يذكـر فيلبي وجلازر وجـام وريكمنسورودو كناكـس وهومـل ومن بعدهم جواد علـي، إنما حكموا على ذلـك من خلال أقدم النقوش في عهدهم قبل الاكتشافات الأخيرة التي وصلت إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ أي الضعف من الفترة التي تحدثوا عنها عن تكوين سبأ.

وتفسـير هذا الأمر يعود مـن ناحية للاكتشافات المتأخـرة، وكذلك يبدو أن سبـأ في القرن الثامن وما بعده وصولاً إلى الحملـة الكبرى لكرب إيل وتار، الذي باعتقـاد المؤرخين أنه أول مـن تسمى باسم «ملك» وقبله كانـوا يسمون «مكاربة» «مكـرب»، إنمـا كان في عهـده الانتعاش الثـاني للدولة السبئيـة وتجديد عهدها وفتوتها بعد ضعف وانحسار.

بطبيعـة الحال،فالمتأمـل والباحـث في أمـر الهجـرة فإنها قد تمـت بشكل هجرتـين: خارجية وداخليـة؛ الخارجية كانت إلى الشـام والعراق وعمان ووسط الجزيرة (الحجاز ونجد)، وكذلك إلى أفريقيا الحبشة والقرن الأفريقي أو حتى إلـى أطراف شمال أفريقيا، حيث البربر ولغتهم الأمازيغية وخطهم المسندي من أكبر الدلائل التي لا تخفى على الباحثين.

أمـا الهجرات الداخلية فقـد حدثت هجرات إلى المعافـر (تعز وإب ولحج) وصنعـاء وتهامة؛ إذ إن تكوين كثير مـن القبائل والأسر في تلك المناطق يعود إلى أصول سبئية ومعينية وأوسانية وحضرمية أيضاً.

تذكـر الكثير من الكتب التاريخية عند الإخباريين، ومنها كتاب السيرة لابن إسحـاق أن الملك «أب كرب أسعد» قام بمحاربة سكان يثرب من الأوس والخزرج

واليهـود، ولم ينتصـر عليهم، وتراجع عن محاربتهم بفعـل نصائح أحبار اليهود هناك أن المنطقة ستكون هجرة النبي العربي من قريش، وعاد وعظَّم يثرب حتى أنه دخل في الدين اليهودي[٥٣].

وعليـه فإن الأوس والخزرج هاجروا من قبل تهـدم سد مأرب لثلاث مرات، كون السد انهار ثلاث مرات بعد أب كرب أسعد، وذلك رداً لمن يقول إن الهجرات كانت عقب تهدم السد في عهد الملك شرحبئل سنة ٤٥٠م.

مـن خلال بعض العوامل الطبيعية من الجدب والجفاف الذي أصاب مأرب لمـدة ثلاثة مواسم؛ أي ثلاث سنوات متتاليات، مما تسبب بموت الأراضي زراعياً وجفـاف الحقول وجفاف الآبار، يمكـن أن نستنتج وجود هجرات لهذه الأسباب، خاصـة وهي من أكثر العوامل التـي تجعل السكان يتركـون أراضيهم ويهاجرون بحثاً عن لقمة العيش والماء والمرعى والزراعة.

فقـد ذكر هذه العوامـل النقش المرموز بـJA ٧٣٥والمـؤرخ بسنة تبع كرب بن ودد إل بن كبر خليل التاسعة[٥٤]، وذلك في بداية القرن الثالث الميلادي، وتحديداً في عهـد الملك شمـر يهرعش، الذي صاحب تبع كرب بـن ودد إل كبير الكهنة في معبد أوام.

صحيـح أن النقش لم يذكر الهجرات، لكن العوامـل الطبيعية والحتمية من هـذا الجفاف واستمراره لثلاثة مواسـم يعني هجرة مؤكدة، وهذا ما نعرفه عبر التاريخ لكثير من الدول والأحداث المشابهة.

التمزيق والقرآن:

ذكرنا أن النقوش على اختلافها لم تذكر تهجير اليمنيين بعد حوادث انهيار السـد؛ لأنـه لم يكـن مقوم معيشتهـم الوحيد، مـع أن مثل ذلك الصـدى الكبير الـذي أحدثته انهيارات السد المختلفة لم يـدوَّن إلا في القرآن الكريم، وعليه سار الإخباريون في كتبهم.

مرجع ذلك إلى سبب مهم، وهو أنه حتى الآن ربما لم تكشف كل النقوش حول السد ومأرب وسبأ، وربما ظهرت نقوش أخرى تدوِّن هذه الأحداث أو الهجرات، وخاصة إذا ما تم الحفر والتنقيب في مجرى السيول أسفل السد للكشف عن هذه النقوش.

ومن خلال النقوش والأبحاث التاريخية المختلفة على كثرتها، ودراسة مختلف الفترات التي تلت حوادث انهيارات السد، وخاصة منذ القرن الثالث الميلادي وحتى القرن السادس، فقد دخلت البلاد في اضطرابات سياسية مختلفة؛ حروب بين سبأ وحمير، وبين حمير وحضرموت، وسبأ وقتبان، وقتبان وحمير، وهكذا دواليك.

لكن أهم تلك الصراعات التي كانت تجري بين تلك الممالك واستعانتها بالأحباش ومملكة أكسوم في محاولة التغلب كل طرف على الآخر، حتى استغل الأحباش تلك الصراعات وبدأوا احتلالهم التدريجي لليمن، والذي بدأ من القرن الثاني الميلادي وصولاً للاحتلال العام والكبير في القرن السادس الميلادي.

هذه الصراعات والتمزقات اشتدت منذ القرن الثالث الميلادي صعوداً إلى إنهاء الدولة على يد الأحباش في القرن السادس حوالي ٥٤٥م، ويمكن أن تكون العقوبة الأخرى إلى جانب انهيارات السد المختلفة، وبعدها لم تقم لليمن قائمة، وهي تدعم الوصف الوارد في القرآن الكريم من حالة الشتات والتمزق، وهي قرينة وربما من بعض الدلائل غير القاطعة أن سيل العرم والانهيار الكبير حدث خلال القرون الثلاثة الأخيرة.

كما إن الصراعات عادة تخلف المآسي المختلفة التي ينتج عنها التهجير للمهزوم أو المعتدى عليه، وهذا يعتبر دافعاً من دوافع الهجرة، سواء كانت الهجرات الذاتية أم القسرية.

اندثار مأرب وإحياؤها:

بدأت مأرب بالاندثار بشكل تدريجي وليس بشكل كلي بعد أن تغلب الحميريون على السبئيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وكانت ما تزال تسمى سبأ، بالإضافة إلى مسميات مصاحبة مثل مملكة سبأ وذي ريدان ويمنات وحضرموت وتهامة وطود وأعرابهم، مع أن هذه التسمية استمرت إلى عهد أبرهة الذي سمى نفسه ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت وتهامة وطود وأعرابهم، بحسب نقشه المذكور عند سد مأرب، واقتصرت تسمية «دولة حمير» على الإخباريين فقط، وتم نقل العاصمة بعد الميلاد إلى ظفار، وأحياناً إلى صنعاء وناعط في عمران، وهنا انتهت «سبأ»، وبدأت الهجرة الكبيرة من مأرب، هجرة داخلية وخارجية، وبقي بعض سكانها مقيمين فيها مع وجود السد وبقائه أيضاً، وتم في الفترات المتلاحقة تهدمه وإعماره وإصلاحه عدة مرات حتى آخر بناء له في عهد أبرهة الحبشي، مما يعني أن مأرب كانت ما تزال حاضرة وعامرة.

ومن الطبيعي جداً في عهد الدول أن ينزاح بعض السكان من المدن تبعاً للتحولات الجديدة في الحكومات والممالك التي تجذب عواصمها المتغيرة السكان من كل مكان لارتباط مصالحهم بالمركز، سواء كانت مصالح سياسية أو اقتصادية أو إدارية، وقد شاهدنا ذلك مثلاً في تحول العاصمة إلى ظفار أو صنعاء من خلال السكان والارتباط بالدولة هناك، أو ما شاهدناه ولمسناه من التحول بعد ذلك إلى صنعاء في عهد الحميريين المتأخرين، وكذلك الحكم الحبشي وصولاً إلى الحكم الإسلامي حينما ازدهرت صنعاء ونمت بفعل هذه التحولات من عهد سيف بن ذي يزن والفرس والأبناء وعبهلة (الأسود العنسي)، أو بعد ذلك في عهد عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فروة بن مسيك المرادي الذي هو من مأرب أساساً، أو وبر بن يحنس الخزاعي، وبعد ذلك عهود ارتباطها بالدولة الأموية فالعباسية وصولاً إلى اليوم. أو كذلك حينما تحولت

العاصمــة إلى تعز بفعــل الدولتين الأيوبية والرسولية وشهــدت جذباً للسكان من أنحاء اليمن لارتباط مصالحهم بالدولة هناك.

وكذلــك من أسباب تدهور مأرب تحويل طريق التجارة من مأرب إلى الغرب والهضبــة الشماليــة الغربيــة من قبــل أبي كــرب أسعد فيما عرف بــدرب أسعد الكامــل، خاصة طريــق التجارة للقوافــل القادمة من الموانــئ الجنوبية الغربية؛ المخا وعدن وذو باب.

بعد الإسلام كانت الدفعات الكبيرة من الهجرات، سواء إلى عاصمة الدولة الإسلاميــة في المدينــة وما بعدهــا في دمشق وبغداد بسبب الانخــراط في جيوش الفتوحــات وما تتناقله الأسماع مــن الاستقرار والإعمار في أراض جديدة أو حتى إلــى عواصم الدولة الإسلامية في اليمن كصنعاء والجند وزبيد وغيرها، وانتقال الجنــود أو الدعاة والعلمــاء أو حتى من سمع بالأراضي الجديدة من بقية الأسر، انتقــل الجميع بأسرهم إلى البلدان الجديــدة، وكانت من أعظم وأكبر الهجرات اليمنية عبر التاريخ، وهذه الهجرات مستمرة حتى اليوم.

بسبــب هذه الهجرات والصراعات المختلفــة، علاوة على الظروف الطبيعية من جفاف وتصحر وغيرها، زحفت الرمال على مأرب وطمرتها ردحاً من الزمن، وكل مــا يعرف عنها من تاريخ اليوم إنمــا بفعل الاستكشافات الأثرية والدراسات التاريخيــة لهذه الاستكشافات، ولم تكــن السيول التي هدمت السد عدة مرات أو التــي عمت أرجاء اليمن إلا واحدة من عشــرات الأسباب الأخرى لهذه الهجرات التي لم يعرف زمنها على وجه التحديد حتى اليوم.

واللافــت في أمر هــذه الهجرات،على أن ظاهرها في القــرآن الكريم عقوبة إلهيــة مسلطة عليهم بفعل الإعراض والكفر، والكفــر هنا كفر النعمة وليس كفر الديــن والعقيدة، أنها كانت من وجه آخر رحمة باليمنيين وإيذاناً إلهياً باستزراع

شعوب أخرى جديدة من هذا التمزيق، فقد زرعوا قبائل وكوَّنوا شعوباً مختلفة في المنطقة، وكانوا أصل العرب بحق.

ولم يكن السبئيون معتمدين على الزراعة فقط حتى يهاجروا بسبب تهدم السد، فقد كانوا رواد التجارة العالمية يومها، وكانت بلادهم على طريق البخور المتحكمين بها، وجعلوا لها محطات يومية يأوون إليها بشكل حاميات عسكرية تابعة للمملكة كما هو الفاو (كندة) مثلاً ودادان العلا وغيرها، وهذا ما وضحته الآيات السابقة أيضاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾سبأ(١٨)، والظهور يعني هنا القوة والمنعة والنصرة كما هو تفسير اللفظ ودلالاته في بقية الآيات القرآنية: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾غافر(٢٩)، ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ التوبة (٨)، ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾الأحزاب (٢٦)، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الصف (١٤)، بمعنى أنها كانت محميات عسكرية لطرق التجارة؛ أي إن الهدف من كل هذا أن اليمنيين لم يتأثروا كثيراً بتهدم السد فيكون سبب هجرتهم.

حيث إن هذه التجارة كانت تعتبر لهم المورد الأول قبل الزراعة في بعض الأحيان، وبالتالي فبإمكانهم عبر هذه التجارة تأمين توريد أغذيتهم المختلفة كبدائل مؤقتة عن التي تلفت جراء تهدم السد وتلف زراعتهم.

وقد يكون كثير ممن عرف التجارة واشتغل بها ذهاباً وإياباً إلى الأمصار المختلفة في الشام ومصر وأفريقيا وأواسط آسيا وفارس، أعجب بأرض من الأراضي التي تاجروا إليها فاستقروا فيها وهاجروا إليها.

وبالنظر إلى الآثار الظاهرة اليوم في مأرب فقد كانت كنتونات بسيطة لا

ترقــى إلى مستوى المدن العملاقة، والتي إن تفرقت نتج عنها شعوب ودول كثيرة، ويبدو أن هناك مدناً مطمورة تحت الأرض الحالية لمأرب نتيجة التصحر وعوامل القدم والدهرية الزاحفة وغيرها، وهو ما لم ينقب عنه حتى الآن إلا قليلاً، وعلى سبيــل المثال مدينــة صغير مطمــورة في منطقة «يلا»[1] من مــأرب والتي كشفت عنهــا ونقبتها بعثــة إيطالية في ثمانينات القــرن الماضي برئاســة أليساندرو دي مجريــت، وأيضاً الدليل طمر معبــدي أوام وبرآن (عرش بلقيس) اللذين لم يكن ظاهراً منهما سوى الرأس فقط، وهنــاك مدن يمنية كثيرة مطمورة أصبح الناس يزرعــون فوقهــا وفي أسطح منازلها على أنها حقــول زراعية كما في الجوف وتعز ولحج وحضرموت.

وقــد تكشف التنقيبات الآثاريــة المستقبلية عن مكان الجنتــين اللتين صارتا مطمورتين بالكثبان الرملية وزحف التصحر عليها، وكذلك عن بقية المدن هناك.

فحضــارة عاد إرم مثلاً مطمــورة في رمال حضرموت وشبوة والربع الخالي، وهناك مدينــة مطمورة تحت رمال مدينة صبر لحج ظهر بعض آثارها بالتنقيب الصــدفي عام ١٩٩٦[2]، فما من أرضٍ يمنية يتم اليوم البحث في الأعماق لإرساء مداميك البيوت والأبنية إلا وجد بعض آثار البناء والسكن في الأسفل مطمورًا ما بين ٤ و٦ أمتار.

معظــم الدراســات والأبحــاث تفيــد أن جزيرة العــرب وصحــراء الربع الخــالي إنما كانت أودية وغابات ومروجاً وأنهــاراً قبل ٤ آلاف عام، وطمرت بفعــل التصحــر وعوامل أخرى كعقوبات الأمم البائــدة التي كذبت الرسالات السماويــة وأفســدت في الأرض فعاقبهــا الله بعقوبــات مختلفــة كالخســف والتدمير والإغراق والرياح التي تدمر وتطمر كل شيء، وبالسحب والعواصف الرمليــة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ الأحقاف (٢٤).

ففي مصر مثلاً كل القصور والمعابد الفرعونية التي تم التنقيب عنها وجدت مطمورة تحت ركام رمال الصحراء في الجيزة وطيبة وغيرها.

فأغلب الظن عندي أن كلاً من محافظات لحج ومأرب وأبين وشبوة وحضرموت والجوف فيها مدن مطمورة بالرمال، خاصة ونحن نعلم أن بعض الحضارات القديمة البائدة أقيمت في هذه المحافظات ولم تكشف عنها الأبحاث الآثارية حتى اليوم، ومنها على سبيل المثال سبأ ومعين وأوسان وقتبان التي وجدت بعض نقوشها وما زالت غير مكتملة المعالم، والأخص منها أوسان التي تتضارب حولها المعلومات حتى اللحظة.

وكذلك من أسباب وعوامل اندثار مأرب تغيير الديانة الرسمية لسبأ من عبادة النجوم والكواكب إلى المسيحية واليهودية، فتم هجران مأرب على اعتبار أنها مقر المعابد الكبيرة للسبئيين مثل معبد أوام ومعبد برآن، وبناء الكنائس في ظفار وغيرها، وتقلصت أهمية مأرب بسبب انهيارات السد المختلفة والتحول في العبادات وتحول العاصمة إلى ظفار وصنعاء وناعط...ودخلت اليمن المسيحية في عهد الملك ثاران يهنعم بين الأعوام ٣٤٩ و٣٥١م بسبب حملة التأثير والتبشير التي قادها ثيوفيلوس مندوب الإمبراطور قسطنطين الثاني «الذي كان قد تمكن من إقناع ملك حمير في الدخول في النصرانية، فدان بها وأمر ببناء كنائس في ظفار وفي عدن. وكان القيصر قسطنطين الثاني (٣٥٠-٣٦١م) هو الذي أرسله إلى العربية الجنوبية ليدعو إلى النصرانية بين أهلها، ويؤيدون رأيهم بالكتابة المذكورة التي يرجع عهدها إلى سنة ٣٧٨م أو ٣٨٤م، فهي غير بعيدة عن أيام الملك ثارانيهنعم، ويحتمل أن يكون لذلك هو الملك الحميري الذي بدل دينه الوثني ودخل في ديانة التوحيد»[٣].

وبدأت تظهر كتابة إلهن ذي سموي إلى الملك ملك كرب يهأمن ابن الملك ثاران يهنعم[٤].

وبعد الملك ثاران جاء ابنه الملك أب كرب أسعد (أبو كرب أسعد الملقب

عنـد الإخباريين بأسعد الكامـل)، الذي اعتنق اليهودية وبـدل الديانة المسيحية والكوكبيـة إلـى اليهودية وقتله أخوه عمرو بتآمر مع عليـة القوم لهذا السبب، ثم انتشرت بعده اليهودية. فكانت تمارس في اليمن ثلاث ديانات: الوثنية، والمسيحية واليهودية، ويطلق على الأخيرتين (التوحيدية).

ويدعـم هذا القول دليل مادي هو مجسم مريم العذراء وابنها عيسى المسيح عبارة عـن إطار مرايا من البرونز عليه صورة مريم العـذراء وابنها المسيح دون أيـة إشارة للصليب عليه مما يعني أنه كان في الزمن التوحيدي الأول للمسيحية، وعثرنا عليه في ماوية من محافظة تعز، تم فحصه في مقر المعهد الألماني للدراسات الآثارية بصنعاء، وأفادوا بأن تاريخه يعود للخمسين السنة الأولى الميلادية[٥].

وتذكـر بعض المصادر أنه أقيمـت كنيسة في إحدى جبـال ماوية شرقي تعز في الفـترات الأولى للدولة الحميرية، قبل الاحتـلال الحبشي لليمن وقبل انتشار عقيـدة التثليث المسيحية. إذ لم تكن هناك بقايا أطـلال لكنيسة مسيحية، لقلنا إن هـذا الدليـل ربما جاء عن طريـق بعض التجارة التي اشتهـر بها اليمنيون في تجارتهم الخارجية قديماً.

***

وتحيا مأرب اليوم مجدداً وتنبعث من تحت الركام بفعل عوامل عديدة، منها الاستكشافات النفطية والغازية وتراكم ثروتها، وكذلك عملية إعادة إنشاء السد من جديد بعد بنائه في عام ١٩٨٤م.

لكـن أهـم عوامـل إحيائها اليوم هو لجـوء كل اليمنيـين الهاربين من بطش المليشيـات الحوثيـة الإمامية إلى مـأرب، وتم إحياؤها بشـكل لم يسبق له مثيل، وعمليـة الإحياء هـذه تذكرنا بعـودة الفرع إلـى الأصل، وأن النـار المتقدة تحت الرمـاد إنما كشفـت عنها الرياح التغييريـة اليوم، وعادت مـأرب مدينة مكتظة بالسكان مـن كل مكان، مزدهرة بعوامل البناء والاستقرار والتجارة، خاصة وأن

أبناءهـا لم ينزعوا إلى النزعات العنصرية والمناطقية المقيتة التي شهدتها بعض المناطق اليمنية، وهو عامل جذب للإنسان اليمني.

وتعـد محافظة مأرب اليوم هي العاصمة الفعلية للشرعية اليمنية التي تأوي كل اليمنيين، ولا أعتقد البتة بعد الاستقرار فيها اليوم أن يتم النزوح منها مجدداً وهجرهـا كما تم مـن قبل حتى لو أعيدت العاصمة صنعـاء لحكم الشرعية وعاد أهلها المهجرون منها، فهي دورة كونية لإعمار الأرض والمدن تجري سنة الله عليها إيذانـاً بإحيائها كما أحيـا مكة الجرداء القاحلة شديدة الحـرارة بفعل الأماكن المقدسة، فإذا أراد الله إحياء أرض هيأ لها أسباب هذا الإحياء.

الخلاصة:

- سد مأرب بني على الأرجح في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.
- لم يكشـف حتـى اليوم(٦) بدليل مادي مـن نقوش ونحوهـا عن الزمن الأول لبناء سد مأرب التاريخي ولا أول من أنشأه.
- سيل العرم وخراب السد حقيقة واقعة مسلم بها بتسليمنا للنص المقدس في القـرآن الكـريم؛ كونه أوثـق الأدلة والتدوين، عضـده نقش شرحبئل يعفر (Glaser٥٥٤) بنسبة كبيرة.
- الجنتـان عن يمين وشمال قـد لا يكون المقصود بهما جنتي مأرب، وإنما جنـان ممتـدة على يمين وشمـال أرض سبـأ التاريخية، ويمـين وشمال البحر الأحمر في ضفتي الدولة الشرقية اليمن الحالية، والغربية أثيوبيا وأرض الحبشة.

- قصة الفأر الذي ساعد في هدم السد قصة خرافية أسطورية لا يصدقها عقل ولا منطق، ولم توجد أدنى الأدلة عليها، وهي من رواية وتدليس الإخباريين وبفعل التنافس والصراع بين العصبيات التي ظهرت بين القحطانية والعدنانية في فترات الدولتين الأموية والعباسية، وكانت تلفق الكثير من القصص الخرافية تحط من شأن ومكانة كل فريق.
- تهدم السد أكثر من ثماني مرات،وبُني وأُصلح لأكثر من ثماني مرات أيضاً، وبالتالي فلا يستطيع أي باحثٍ كان أن يسقط هذا التهدم المتكرر على سيل العرم لمرة واحدة، ويكون استمرار السيل مهدداً في كل مرة لهذا السد بدليل تعدد الخراب والإصلاحات.
- هجرة اليمنيين لم تكن بسبب تهدم السد وحسب، وإنما بفعل الصراعات السياسية بين الممالك المختلفة والأسر الداخلية للملوك، وحب التوسع، والاحتلال الحبشي، وعامل التجارة أيضاً،واستيطان أراضٍ جديدة أكثر خصوبة من بلادهم، وكذلك الجفاف والقحط، وسيل العرم واحد من تلك الأسباب، لا كلها، وكانت هجرات على مراحل متعددة تحدث بين فترة وأخرى لأكثر من سبب، وتكون هجرات من مختلف مناطق اليمن لا من منطقة معينة، وهي مستمرة حتى اليوم.
- لم يكن اليمنيون يعتمدون اعتماداً كلياً على الزراعة حتى يهجروا أوطانهم بفعل القحط والجدب وخراب السدود وسيل العرم، فقد كانوا رواد التجارة العالمية القديمة المتحكمين بطرقها البرية والبحرية، والمتحكمين بالسلع النادرة، وقد ذكر المؤرخون اليونانيون بذخهم وغناهم اللامحدود بفعل هذه التجارة.
- كانت هناك هجرات تدريجية ومتتالية من بعض المناطق اليمنية وخاصة مأرب والجوف وما حولهما، وأوسان بفعل التنكيل السبئي بهم، وهجران

مدينة مأرب قبل الإسلام وبعده، وهو ما كشفته الرمال الزاحفة وعوامل التصحر وقلة المياه، وانتقال العاصمة السياسية منها إلى ظفار وصنعاء.

- قصة التمزيق المذكورة في القرآن توحي بعقوبة تجارية ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، والسفر والتنقل لم يكن إلا للتجارة التي كان السبئيون روادها، وحينما حلت عليهم العقوبة أقام كثير منهم في البلاد التي كانوا يتاجرون إليها.
- آثار السد الموجودة اليوم ليست للبناء الأول للسد، وإنما لبناء الملكين شرحبئل يعفر وأبرهة الحبشي، كون النقشين يذكران إعادة بناء كاملة.

تم بحمد الله

ملحق الصور

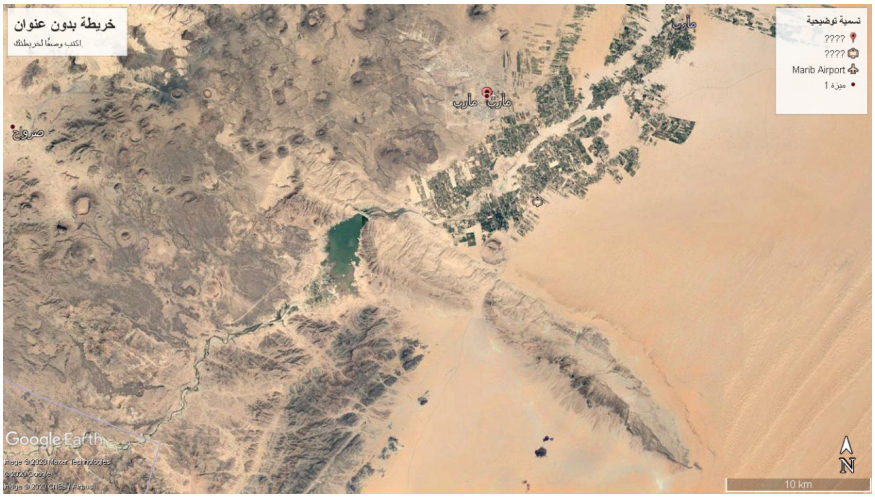

الشكل رقم (١)

صورة جوية لمنطقة السد والعرم الجبلي الطبيعي

الشكل رقم (٢)

ما تبقى من السد القديم

الشكل رقم (٣)

سيول مأرب حوالي السد توضح كيف جرت السيول القديمة لتهديم السد

الشكل رقم (٤)

حجر نقش السد يذكر اسم كرب إل بين بن يثع أمر دون تحديد ماهية العمل في السد

الشكل رقم (٥)

نقش يثع أمر بين في صرواح والذي كتب فيه إنجازاته ومنها إصلاح السد

الشكل رقم (٦)

نقش كرب إل وتر والمسمى نقش النصر في صرواح، وعملية ترميم السد من ضمن ما ورد في النقش

الشكل رقم (٧)

نقش شرحبئل يعفر

الشكل رقم (٨)

نقش ومسلة أبرهة الحبشي الذي يذكر فيه إعادة بناء السد وإصلاحه

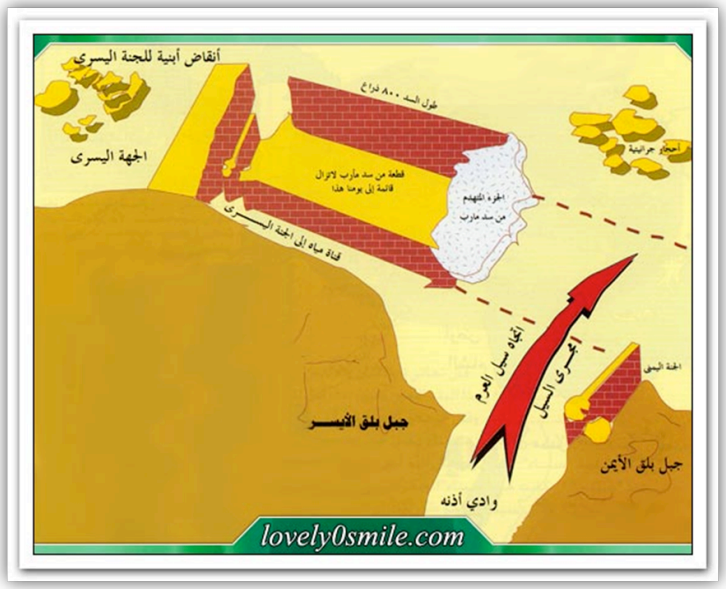

الشكل رقم (٩)

خارطة لمنطقة السد

الشكل رقم (١٠)

السد الحديث الذي بني في عام ١٩٨٤م بتمويل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

المصادر والمراجع

١. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي – ط٢ – جامعة بغداد ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٢. أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: للدكتور يوسف محمد عبد الله رئيس قسم الآثار بجامعة صنعاء – دار الفكر –بيروت – لبنان –ط١٩٩٠م.

٣. تفسير ابن كثير: لابن كثير الدمشقي–دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض –ط١ – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٤. لسان العرب لابن منظور – نسخة إلكترونية.

٥. السير والمغازي: لابن إسحاق: – ط دار الفكر – ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٦. رسالة ماجستير غير منشورة: فيصل محمد إسماعيل البارد – /١٩٩، ٢٠٣ – ٢٠٠٩، ٢٠١٠م.

٧. موسوعة علوم اللغة العربية: إميلبديع يعقوب– دار الكتب العلمية – ١٤٢٧ – ٢٠٠٦م.

٨. المعجم الجامع لما صرح به وأبهم في القرآن الكريم من المواضع: حمد محمد صراي، يوسف محمد الشمسي – مركز زايد للتراث –ط١ –٢٠٠٠م.

٩. حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري – ط دار الفكر – دمشق – ١٩٧١م.

١٠. التنقيبات الإيطالية في «يلا» في اليمن الشمالي: معطيات جديدة حول التسلسل الزمني للحضارة العربية الجنوبية قبل الإسلام: الدكتور أليساندرو دي مجريت، والدكتور كريستيان روبان – ترجمة الدكتور منير عربش – المركز الفرنسي للدراسات اليمنية – صنعاء– ١٩٩٩م.

١١. فتوح البلدان: أبي الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري – دار الكتب العلمية.

١٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي– ط مؤسسة دار الهجرة – ١٩٨٤م.

١٣. معالم تاريخ العرب قبل الإسلام: للدكتور أحمد أمين سليم – مكتب كريديه إخوان – بيروت – لبنان.

١٤. تاريخ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – بيت الأفكار الدولية للطباعة والنشر.

١٥. معجم البلدان: ياقوت الحموي – ط دار صادر بيروت – ١٩٧٧م.

١٦. نار ضروان وأصحاب الجنة (دراسة): مطهر الإرياني – المؤتمر نت – الاثنين، ٢٨مايو-٢٠٠٧م.

١٧. معمر الشرجبي: دراسة نقوش مسندية – صفحة النقوش على فيسبوك. ذو القرنين وجنسيته: قراءة جديدة: توفيق السامعي – ٢٩ أبريل ٢٠١٨م.

الهوامش

(١) هو ما يطلق عليه اليوم سدُّ كِتاب من يريم، وكتاب تسمية متأخرة والأصل «قتاب».

(٢) جواد علي: المفصل/ج٧/٢١٢.

(٣) الملقب بالجزار، أرسله أخوه محمد بن إبراهيم (طباطبا) لنشر دعوته في اليمن سنة ١٩٨هـ، فقام بأبشع المجازر والقتل بحق اليمنيين، ولقب على إثرها بالجزار لكثرة مجازره، وهو الذي هدم مدينة صعدة وسد الخانق الحميري فيها سنة١٩٩هـ، واتخذت أفعاله تلك ديناً وتشريعًا من قبل الهادي الرسي ومن جاء بعده من الأئمة بحق اليمنيين، وهو باذر بذرة الإمامة الأولى قبل الرسي، وما كل المجازر التي أقيمت عبر التاريخ من قبل الأئمة بحق اليمنيين إلا من بذرة هذا الخبيث السفاح.

(٤) جواد علي: المفصل/ج٧/٢١٢.

(٥) المصدر السابق/ج٧/٢١٢.

(٦) المصدر السابق /ج٧/٢١٣.

(٧) المصدر السابق /ج٧/٢٠٩.

(٨) تفسير ابن كثير: ج٦/٥٠٧

(٩) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر –بيروت/ لبنان –ط١٩٩٠م، صـ٨٠، ٨١.

(١٠) المصدر السابق/٣٢٤.

(١١) خط المحراث القديم: هو أولى الخطوط اليمنية المعروفة للفترة المتقدمة من استكشافات النقوش السبئية، عرفت به الفترة السبئية دون غيرها، ويكتب من اليمين إلى اليسار، ثم العكس من اليسار إلى اليمين ولذلك سمي خط المحراث.

(١٢) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٣٢٥.

(١٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج٧/٢١٠.

(١٤) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر، بيروت/ لبنان، ط١٩٩٠م،صـ٨٠، ٨١.

(١٥) نار «ضروان» وأصحاب الجنة.. في نقش مسندي: مطهر الإرياني، المؤتمر نت – الاثنين، ٢٨-مايو-٢٠٠٧م.

(١٦) جواد علي: المفصل/ج٧/٢١٠.

(١٧) يرد اسم: سمهلي ينوف في كل النقوش اليمنية وتفسيراتها لدى كل أو معظم الباحثين مفصولاً (سمه علي ينوف) عدا المؤرخ جواد علي يذكره مشتبكاً (سمهلي ينوف) ومرة يورده مفصولاً أيضاً كما في ج٢/٢٨٢ س٢٠.

(١٨) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٦/ ٢٠٠٩ – ٢٠١٠م.

(١٩) جواد علي: المفصل/ ج٧/٢١٠.

(٢٠) المصدر السابق/ ج٢/٢٨٨.

(٢١) انظر الصورة المرفقة من السد رقم٢.

(٢٢) جواد علي/ المفصل/ج٢/٥٢٢.

(٢٣) المصدر السابق/ج٢/ ٥٦٧.

(٢٤) المصدر السابق/ج٧-٢١١.

(٢٥) معمر الشرجبي: دراسة نقوش مسندية – صفحة النقوش على فيسبوك، توفيق السامعي: من هو

ذو القرنين وما جنسيته/ مأرب برس/ ٢٩ أبريل ٢٠١٨م.

(٢٦) جواد علي: المفصل/ج٧ /٢١١.

(٢٧) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره/ صـ٨٨.

(٢٨) المصدر السابق/ صـ٨٨.

(٢٩) جواد علي: المفصل/ج٢/٥٤٦.

(٣٠)المصدر السابق ج٢/ ٢٨١.

(٣١)المصدر السابق ج٢/٢٨١.

(٣٢) المصدر السابق: ج٢/٢٨٣.

(٣٣) فيصل البارد: رسالة ماجستير غير منشورة /٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص٣٦.

(٣٤) جواد علي: المفصل/ ج٢/٥٦٦، فيصل البارد: رسالة ماجستير/٢٣١-٢٣٣.

(٣٥) لمزيد من التفاصيل ينظر جواد علي: المفصل: ج٢/٥٨٠، ٥٨١.

(٣٦) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٢٠٠٩ -٢٠١٠م، ص٣٤٤، ٣٤٧.

(٣٧)المصدر السابق: ص٣٣٩.

(٣٨) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره/ ص٨٥.

(٣٩) جواد علي: المفصل/ ج٧/٢٠١.

(٤٠) ابن منظور: لسان العرب: ج٣٢/٢٩١٤.

(٤١) فيصل البارد - رسالة ماجستير/ ٢٠٠٩، ٢٠١٠م، ص١٩٩، ٢٠٣.

(٤٢) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن/ صـ٩٠.

(٤٣) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٢٣١.

(٤٤) المصدر السابق/٣٣٠.

(٤٥) تفسير ابن كثير: ج٦/٥٠٧.

(٤٦) البلاذري: فتوح البلدان/ ص٢٤، ٢٥- دار الفكر.

(٤٧) المسعودي: مروج الذهب/ ج٢/١٦٤ – ط مؤسسة دار الهجرة -١٩٨٤م.

(٤٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان/ –ج٥/٣٥ – مادة مأرب – ط دار صادر بيروت – ١٩٧٧م.

(٤٩) حمد محمد صراي، يوسف محمد الشمسي: المعجم الجامع لما صرح به وأبهم في القرآن الكريم من المواضع/مركز زايد للتراث –ط١ -٢٠٠٠م، ص٢٢٥.

(٥٠) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري: حياة الحيوان الكبرى/ ط دار الفكر – دمشق – ١٩٧١م، ج٢/١٨٦.

(٥١) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن – صـ٨٥.

(٥٢) موسوعة علوم اللغة العربية: ج٣/٤٧٤.

(٥٣) ابن إسحاق: سيرة، ط دار الفكر – ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٥٢.

(٥٤) فيصل البارد: رسالة ماجستير/١٩٩.

(٥٥) التنقيبات الإيطالية في يلا (اليمن الشمالي سابقا): معطيات جديدة حول التسلسل الزمني للحضارة العربية الجنوبية قبل الإسلام: الدكتور إليساندرو دي مجريت، والدكتور كريستيان روبان: صـ٣٦ – ترجمة منير عربش.

(٥٦) كنت أحد المشاركين في بعثة جامعة صنعاء الآثارية إلى هذا المكان للوقوف على هذا الكشف الأثري الهام والمشاركة في دراسته.

(٥٧) جواد علي: المفصل: ج٢/٥٦٨.

(٥٨) المصدر السابق/ج٢/٥٦٨.

(٥٩) يحتفظ الباحث بهذا الرمز الأثري كدليل على ما ذهب إليه من المعلومات الواردة أعلاه.

(٦٠) مع استمرار أعمال التنقيب عن النقوش والآثار قد تظهر نقوش جديدة تفصل في هذا الموضوع.